كرم صابر

سيرة ذاتية لرئيس

رواية



كرم صابر

سيرة ذاتية لرئيس

صفصافة 2014

سيرة ذاتية لرئيس

رواية

"كرم صابر"

رواية: سيرة ذاتية لرئيس!

كرم صابر

الطبعة الأولى أغسطس ٢٠١٤

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٢٥٨١

الترقيم الدولى: ٣-١٦-٥١٥٤-٩٧٧-٩٧٨

الناشر: محمد البعلى

المستشار الفنى: علاء النويهى

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

٥ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية: ٢٠١٥

إلى صديقتى الغالية "آن مارى"

أينما كنتِ سلامًا وعشقًا

القسم الأول: شِدَّة

" عيون "

تخطفنى الأزقة وراء ظل لا أعرفه، فأتوجه إلى الميناء المكتظ بالباعة، متلمسًا دفء الشمس المنثور فوق البيوت، أسير وسط البنايات المهدمة، والمحلات الضيقة حتى أصل إلى البحر الممتلئ بمراكب الصيادين.

العمال ينتشرون فوق الأرصفة، وينادون على بعضهم، ويجرون عربات كارو قديمة ويرفعون الحمولات ويهرولون ناحية البحر، أتلفت حولى ليتعرفوا على وجهى، يتجاهلون نظراتى، ويندفعون للمجهول غير عابئين بالمصير.

أدخل المقهى، وأطلب شايًا بحليب، وأجلس صامتًا أراقب الوجوه المندهشة من ألوان ملابسى، وأتذكر صوته الطيب يوم وداعى قائلاً: "انتظرنى".

الوقت يمر، والنادل يأتى بالحلبة واليانسون والقهوة، ويسجل فى دفتره حساب اليوم الطويل، وأنا مازلت مندهشًا من وجوه الداخلين والجالسين، حين جلس طيفه بجوارى، قلت له: "لكنهم أنكرونى"، رد بحب: " تلمس دفء مشاعرهم، وحينما تفقد البوصلة تذكرنى".

تحسست جسدى لأتأكد من وجودى، ونظرت للبحر صامتًا فأستكمل طيفه: "أصغى لأصواتهم، وسجل كل ما تحسه بأعماقك، لا يهم تداخل نبرات صوتك مع رغباتهم، شىء واحد يجب ألا يضيع عن بالك حتى النهاية"، وحين سألته بشغف: "ما هو؟" رد مغادرًا: "الآن عدت للحياة ونضجت، اكتشفه بنفسك".

عند ذلك طلب النادل حسابى، قائلاً: "الوردية انتهت"، دفعت المبلغ وترجلت وحيدًا بليل الميناء، العفاريت تملأ الشواطئ وتختفى بين المراكب، البحر صامت، وصوت الموج يبعث للظلام موسيقى موحشة.

الخفافيش تصرخ فى رعب، وبقع النور تظهر وتختفى، الأصوات الهامسة تتزايد، والمقاهى تغلق أبوابها، والشاطئ يتراجع، وأنا أدخل قلب الشوارع أبحث عن خلاصى.

تأخذنى أقدامى إلى بقاع غريبة، فأشاهد نفسى داخل سوق للملابس، يردد باعته محاسن قمصان النوم والعبايات والملابس الداخلية، والفوط والملايات.

وحين جذبتنى فتاة مبهجة لأدخل دكانها طلبت منها شراء غيار داخلى، وسألتها عن مكان للمبيت، اندهشت، وأخذتنى من يدى، وقالت بأسى: "أين عيونك؟" سارت بجوارى حائرة فى الشوارع، وسألتنى بشفقة: "انت منين؟"

دخلت وراءها منزلاً قديمًا وصعدنا أعلى سطوحه، وبعد أن فتحت باب حجرتها ورصت الأطباق على الترابيزة، وأخلعتنى ملابسى، قالت: "نَمْ ولا تخف"، تفحصت عيونى ، وأعطتنى فوطة قديمة، وأشارت إلى الحمام لأغتسل، وقالت: "السماء العالية ملكى" سألتها عن أهلها وزوجها وأولادها، فأجابت ضاحكة: "أنت الوحيد الباقى!!"

تناولنا طعامنا ونمنا عدة ساعات، ولم يوقظنا إلا مواء القطط المتصارعة التى دخلت الحجرة مندفعة وراء الرائحة ، ألقت لها ببعض الأسماك، وارتدت ملابسها، وقالت: "وردية الليل حان موعدها"، ترجلت معى حتى ناصية المحل، وودعتنى على أمل المبيت فى حجرتها، ما دمتُ حيًا.

عند رحيلى من أمامها، خطف أحد الصبية قميصى، فصرخت طالبًا النجدة، فطمأنتنى، قائلة: "اللصوص يتبعون صاحب المحل".

وأشارت إلى مدخل أحد البيوت، مستكملة: "ادخل واسأل عليه، وأَظْهِر علامات قوتك، الفرصة لا تأتى فى الحياة مرتين".

لا أدرى لماذا اعتقدت بأن هذه الفتاة عاشت معى فى أزمان غابرة، أتعرفنى، أم أننى عدت لا أعرف نفسى، ومع ذلك هناك شىء عالق فى قلبها يذكرنى بابنتى التى دأبت على تجاهل نظرات عيونى.

" عزيزة "

فجأة اختفى سندى الوحيد فى الحياة، وضاعت البسمة والأمل اللتين مدنى بهما على مر السنين، كان يكفينى رؤية وجهه لأحس بالسلام يملأ روحى، باعتباره الرجل الوحيد القادر على حمايتى.

ملأ حياتى بدفء متدفق لا ينضب، وراقب يومياتى فى حب، كأنه يعد الساعات ليرانى أميرة الدنيا، احتوانى، وخاف على جفونى من نسمة الهواء، غير عابئ بنصائح أمى أو تهديدات الجيران، وتركنى أطير وأحلق علنى أشق وحدى طريق السعادة.

حين تطورت الأحداث وأصبح كل شىء غامضًا، اختفى بريقه، و لم يعد يفهم ما يدور حوله، وعاش كالغريب بيننا، وفقد القدرة على معرفة مغزى الطرق، تاه وسط الضجيج، وانزوى كالفأر، حينذاك أصبحت حياتى كالجحيم؛ لم أعد أطيق لسان أمى السليط، ولا تهكم خالتى التى لم يعد لها سيرة إلا حال أسرتنا المايل.

انتهز أخى فرصة ذهوله، واشترك مع الشباب فى السرقة، وحاول أن يزوجنى لأحد أصدقائه، وحين لم أجده بجوارى فكرت فى الهرب، سمعت صوت الميدان المفتوح للبنات، دخلته ، وتعرفت فيه على أقرانى، وسرت بينهن غير عابئة بطلقات الرصاص، دربونى ووثقوا فى إخلاصى، فولدت من جديد دون ماضٍ أو أهل.

شهور عديدة أسمع وأدون، وأقرأ يوميات البشر الذين يحكون قصصهم حولنا، وينطلقون مرة أخرى إلى الحوارى متشبثين بالحياة، تغيرت حياتى، وعدت امرأة أخرى ترغب فى الموت.

تعلمت من زميلاتى أشياء كثيرة، ومات قلبى بعد رحيل إحداهن، ورفضت تحويلى إلى دمية خرساء فى الحوارى النجسة.

واخترت طريقهن بديلاً عن أمى المستهترة، وخالتى اللامبالية، وأصبح ضجيج الميدان، وهتاف الثوار كل حياتى، لم أخف أو أتراجع وأنا أجد صديقاتى يتقدمن الصفوف ويرحلن إلى السجون، تحولت الدنيا من حولى لأحداث لا تنتهى، أجهز مع رفاقى طرق المواجهة، ونكتب

الشعارات ونرتب خطط سير المظاهرات والهتافات وأماكن الاعتصام وسبل المقاومة، بتلك اللحظات كنت أنسى روحى وأرفض الطعام أو النوم.

انتابتنى مشاعر جديدة وأحسست بأن الماضى المدفون رحل دون رجعة.

قابلت المتمردين، وهتفت معهم بسقوط الأقنعة وحرق اللحى، تغيرت رؤيتى، حتى أبى الذى يأتى ويخرج دون الشعور بحياتى، تحول إلى مجرد شخص يستحق العطف.

أحزن لبلادة أمى وأتأسى لحالها، وأشفق على خالتى التى عانت من القهر ورفضت خرق التوب، التى كبلت فيه نفسها.

أشعر أحيانًا بأننى نسيت وجوههم لدرجة أننى لو شاهدتهم بتلك اللحظة لن أعرفهم، أضحت اجتماعات رفاقى كل حياتى؛ لكن هالة النور التى تحيطنى وتغرق روحى عند جلوسى بجوار زميلى " حمادة"، جعلتنى أتراجع مندهشة من عيونه، تدرب مثلى وتحول لقائد مفوه، ورغم أننى لا أعرف تاريخه، لكننى أحس بأنه يعرف كل أسرارى، حين قال فى اجتماعنا السابق، وهو يجاورنى: "ازيك"، أحسست بأننى فتاة تستحق السؤال.

" قصر "

دخلتُ المنزل المفتوح على مصراعيه، باحثًا عن اللص الذى سرق قميصى ، وسرت فى ردهته الواسعة مدهوشا من أبواب الشقق المتشابهة.

وقفت وسط مكان فسيح، يمتلئ بالملابس ولعب الأطفال، ومشدَّات النساء الغارقة في العطر، وتحسست بجوارحى قمصان النوم، مندهشًا من ليونة حمالاتها.

صرخ أحد العمال فى وجهى كى أدخل إلى المغارة ، دخلت وشاهدت رجلاً خمسينيًا ملتحيًا يجلس على مكتب فخم، يمتلئ بالأوراق والدفاتر، وسألنى بهدوء دون أن ينظر لوجهى: "عايز حاجة يا بابا؟"

حكيت الحكاية، وقلت فى نهايتها: "أريد قميصى"، رد بسخرية: "أحسن لك تمشى وتنسى"، تجاهلت حديثه، قائلاً: "لن أخرج إلا بقميصى، الخطافون يتبعون طريقك".

تركنى وخرج من ممر خلفى، فقمت مهرولاً وراءه حتى وصلنا إلى ردهة منزل ريفى واسع، يمتلئ بالبرسيم والحشائش الخضراء.

لمحت بجوار سلم خشبى يتوسط المنزل زريبة للمواشى، مملوءة بالعمال الذين ينظفون الروث، ويحلبون الألبان من ضروع الجواميس، وينظرون ناحيتى فى غضب.

بحلق عشرات الشباب الذين يمسكون السواطير فى أياديهم لجسدى بريبة، وتهامسوا بلغة لم أفهمها، أصابنى الرعب، ومع ذلك تجاهلنى صاحب المحل الملتحى، ونادى على أولاده، ليتناولوا العشاء.

غرفت النساء أطباق اللحوم والمحاشى، وناولت إحداهن رغيفًا لكل طفل، ونظرت لعيونى ببهجة، قائلة: "اتفضل يا حاج، اتفضل يا خويا، الأكل كتير متخافش من ريان".

نظر إليها الرجل بغضب، قائلاً: "متكلميش الغرب أدامى يا مرة!!"، وحين لمحت لون قميصها الأحمر من فتحة صدرها العارى، اقترب من جسدها كالوحش، وفعص نهديها أمام الجميع، قائلاً: "اتلمى يا وليه مش وقته".

ناقش الجميع فى الإنتاج، والموديلات الجديدة، وأوضاع سوق المواشى، وتجاهل وجودى، حينذاك صرخ عمال الزريبة فى وجهه، قائلين: "عايزين نأكل يا حاج"، فنظر بغيظ ناحيتهم قائلاً: "تكفيكم فضلات أبنائى يا نجاسة".

وامتطى المرأة التى داعبت وجودى، قائلاً بصوت عال: "يا فاجرة ".

تلوت، وشهقت، وصرخت، والجميع نظر لعناقهما الطويل مشتاقًا لعبق الحياة، وحين سال الماء الدافق على فخذيها، صفق الجميع للرجل الوحيد وسط جمعهم.

وسط الضجيج سمعت أحدهم يقول: "هنقطع جتته ونحطها فى شوال وندفنه بالزريبة".

حينذاك سحبنى رجل آخر من خلفهم إلى ممر طويل وخرجنا من باب خلفى، وتركنى على أول الشارع، قائلاً: "انفد بجلدك"، عندما نظرت لوجهه، ارتعشت جوارحى، وعاد طيفه سريعًا إلى داخل أعماقى.

سرت وحيدًا بالشارع المزدحم بالمقاهى والمطاعم، لأجد نفسى أمام لافتة كبيرة مكتوبًا عليها: "حى النصر"، وعندما توقف الباص أمامى ركبت عائدًا لمنزلى.

ترجلت مسرعًا حتى باب شقتى، ووضعت المفتاح فى الكالون، ودخلت الصالة، خلعت ملابسى، وأغلقت ورائى باب الحمام، مستمتعًا بالدش الساخن.

أزالت المياه عن نفسى الأسى، وعندما شعرت بروحى كحمامة، ارتديت سروالى، ودخلت لحجرة نومى.

وجدت امرأتى شبة نائمة، فتسحبت بجوارها، مذهولاً من الدفء المحيط بجسدها، وعندما تحسستْ أعضائى، انتصبتُ على آخرى، وعاشرتها بحب وهى تئن وتصرخ من عودتى الميمونة.

أثناء امتطائها، سمعت صوت إحدى الجارات تنادى على اسمى، فارتديت ملابسى سريعًا، وفتحت باب الشقة، فشاهدت زوجتى ترحب بعودتى، قائلة: "أنت جيت إمتى يا حبيبى؟"

وسط ذهولى، استكملت المرأة بود: "أختى نايمه جوه، اوعى تكون صحيتها أو قلقتها يا راجل".

لم أرد، لكن الشيء الغريب أن ملامح زوجتى وروحها، كانتا تشبهان أختها تمامًا، عند ذلك انزويت فى الحمام مدهوشًا مما حدث، وأخذت دشًا ساخنًا راغبًا فى التطهر، وحين خرجت للصالة وجدتهما مبتهجتين بوجودى، فقلت لهما بحب: "سأجهز لكما العشاء".

دخلت أخت زوجتى ورائى، ولامست أطرافى، فانتصبت مرة أخرى، وحين خفت من افتضاح أمرى، خرجت من المطبخ، مداريًا عورتى، عند ذلك وجدت زوجتى شبه عارية تسرح شعرها أمام المرآة، أخذتنى فى حضنها، وأغلقت باب الحجرة، ونامت فوقى صارخة من النشوة.

قالت بحب، وهى تلملم جسدها العارى: "أختى هتعيش معانا، جوزها طردها من شقتها، ومعندهاش حد فى الدنيا إلا احنا"، نادت على أختها لتأكل معنا، فلبّت طلبها، وتركتنى بالسرير مختفيًا فى ذكرياتى.

بعد مرور أسبوع من زواجى، شاهدت زوج أختها يعاقر إحدى الجارات فرفضت حضوره لمنزلى مدعيًا تلصصه على أرداف الجارات، وعاملته بجفاء ليفهم رسالتى ويتركنا بحالنا.

لكن أختها لاطفتنى كثيرًا وحكت عن قسوته، وهجره لسريرها شهورًا طويلة، خاصة بعد زواجه بامرأة أخرى يأمل أن تلد له العزوة.

بعد وفاة والدهما، لم يعد لهما فى الدنيا سواى، ومع ذلك، لا أعرف كيف أعدل بينهما؛ فالأولى زوجتى أم أولادى ولها علىَّ حقوق، والأخرى وحيدة، هجرها زوجها بعد زواجه من امرأة تعمل فى النوادى الليلية "مسهلة رغبة".

بكت كثيرًا على صدرى، ولامست قضيبى، واحتكت بأعضائى، ودعكت جسدى لتخفف أوجاع وحدتى، خاصة عند زيارة زوجتى لأولياء الله الصالحين.

وللأمانة لم أمتطيها وأعاشرها كرجلها، إلا فى الليلة التى عدت فيها من الميناء، خالى الوفاض.

النوم يطارد جفونى، فأدخل إلى أحلامى مشاهدًا نفسى أحيا داخل قصر يقبع فوق ربوة عالية، ويمتلئ بالحجرات والأثاث الفخيم، وفى غفلة منى، أُغْلِقَتْ أبوابه على روحى، فعشت بين جدرانه وحيدًا أتلمس ضوء الشمس.

وحين هطلت الأمطار على سقوفه، خرجت العفاريت والثعابين من حوائطه، فوجدت نفسى أقف بجوار فسقية ذهبية، تخرج فصوصها المفتوحة نارًا سوداء حارقة، فجأة أنطلق الرعد والزلازل وتحطمت الأرضية تحت أقدامى، وسقطت فى بئر عميق، وأثناء هبوطى مد طيف شبيه بملاك يديه، وأمسك ملابسى وأعادنى للردهة الواسعة، حينذاك انشقت الجدران عن حفر وآبار أكثر عمقًا وظلمة، ممتلئة بالخفافيش.

قاوم الطيف بشراسة لينجو كلانا، طار بقدميه الحديدية فى اتجاه الباب المغلق بإحكام فى الجنازير، ودهس الأقفال بقبضته الفولاذية؛ لننجو ، وحين تسلل نور الشمس إلى غرفتى، طبطب على ظهرى، قائلاً: "لا تخف".

وقبل مغادرته نظرت ناحيته محاولاً تحسس جسده أو التعرف على ملامحه فضحك وهرب مختفيًا.

" أنهار "

منذ دخول "بلبل" بحياتنا أضحى أملى الهروب من شقة والدى التى استولت عليها أختى وزوجها وعاشوا فيها كعشاق.

كنت أسمع صراخها من النشوة، وهى تئن وتبتهج، وتخرج للصالة عارية كى تستحم دون أى أحترام لصبرى أو وحدتى، تلصصت على أنفاس زوجها الذى ينظر لجسدى كالثعلب، وحين أتأكد من نومه أدخل إلى الحمام مسرعة حتى لا يرانى.

حينذاك ألقى القدر على بعابر سبيل، وطلب يدى للزواج، ووافقت دون تردد وانتقلت معه إلى الشقة التى أستأجرها بالحى، وظللت أعمل دون كلل حتى أنجبنا ولدينا، وتمنيت العيش ككل النساء فى ظله، لكنه خدعنى واهتم بأحلام وماض أدى فى النهاية لتركى مع أولاده وسط جيرانه الذين استباحوا جسدى.

تعلمت من الحياة أن أحيا ساعات يومى فى رضا، ولا أترك المتعة تهرب منى، فحين جاء زميله إلى منزلنا يسأل عليه، رحبت بحضوره، ورأيت فى عيونه شبقًا لم أحسه من قبل .

طلب ودى ليتزوج أختى، رغم معرفته بأن "بلبل" زوجها لن يطلقها أبدًا، لكنه تودد إلىَّ لينال كلمة طيبة تخفف جراحه المكبوتة.

كان يعود من المصنع إلى شقتنا، حاملاً اللحوم والفاكهة، يجالسنا ويسهر معنا؛ ليخفف عن نفسه تعب اليوم الطويل.

الغريب أن زوجى لم يمتعض من وجوده، ورحب به كأخ رغم نظراته الفاجرة، وحين يتركنا لينام بالحجرة المجاورة فى حضن ابنى وبنتى، لم يكن زميله يغادر الشقة مدعيًا عشقه لعيون "أزهار".

يداعبنى، ويبتهج، خاصة عندما نأمره بالنزول للشارع لشراء الكفتة، وننتظره سعداء بحب رجل، لا تربطنا به أى صلة، حاول معاشرة "أزهار"، لكنها رفضت أن تنعم بلحظة دفء لن تتكرر، فانتهزت الفرصة غير عابئة بالجميع وأطفأت ناره.

وغطت أختى علينا بجلوسها فى الصالة ومشاهدتها مسلسلات التليفزيون وأنا أختلى بجسده فى حجرة البلكونة، ليفجع رجولته فى قلبى مخففًا وحدتى.

يحدثنى دائمًا بأن الله يعاقبه لأنه لم ينجب الأبناء، لكنه عوضه بحبى، وانتظار تطليق "بلبل" لأختى لينعم بزواجها ومجاورتى.

عشنا سنين ننعم بالحياة المشتركة فى ظل صمت رجل يعلم الجميع بأنه زوجى، لم يتهمنى فى أحاسيسى أو رغباتى، كنت سعيدة لأننى أعيش داخل شقتى كملكة، أنتظر بفارغ الصبر زواج ابنتى، لأهجر قسوته، وأعاشر "ضيف" فى أمان.

وفى ليلة حزينة، وأثناء معاشرتى لضيف دخلت علينا ابنتي "عزيزة"، ونظرت لعيونى ونهودى العارية، فهرولت من تحت الرجل المستاذأب، وأخذتها فى حضنى.

أيقظتنى من غيبوبة الحب وتركتنى بعد ذلك أسيرة نظراتها القاسية، رغم أننى عطفت عليها ودخلت إلى الحمام لأتطهر من الذنوب، لكنها لم تغفر لى، كأنها تعايرنى باستمتاعى بأحضان رجل محب كى أتمكن من الاستمرار فى حياة أبيها القاسى، ورغم ذلك خرجت من المنزل، والتحقت بالمتمردين الذين قلبوا رأسها، وأصبحت تحيا معهم دون الشعور بوجودنا.

أفجعنى خروجها كل ليلة وحيدة، والمبيت فى الميدان، ومنذ يومين رفضت العودة إلى المنزل، وهددت أخوها بالقتل، إذا فكر فى ملاحقتها مرة ثانية.

لا يهمنى ما أسمعه عما طال البلاد، فالأمل الوحيد لى أن أموت مستورة، ورغم أن ابنى أصبح رجلاً ويمكنه حماية نفسه، فإننى حزينة لأنه لم يستكمل تعليمه، أخاف عليه بعد امتهانه البلطجة والسرقة بديلاً عن حياتنا، حاولت كثيرًا إثناءه عن المشى البطال، خصوصًا بعد اختفاء والده، لكنه اختار طريقه.

وأصبح أملى الأخير بعد ضياعه رؤية ابنتى تنام معززة مكرمة فى بيت زوجها.

" شاطئ "

حين خرج الجميع من المنزل، فتحت باب شقتى لتفهم جارتى السر، وشاهدت إشارتها من البلكونة العلوية، فارتديت ملابسى مسرعًا وصعدت السلم، غير عابئ بنور الصباح.

نظرت لعيونها الفاجرة، فأخلعتنى ملابسى ودعكت عروقى، امتلأ جسدها بالنشوة وفجرت ضلوعى، ثم انسحبت من تحتى قائلة كعادتها: "أنزل بسرعة قبل ما جوزى ييجى".

عدت لشقتى باحثًا عن أبنائى، وحين لم أعثر عليهم دخلت الحمام لأغتسل من ذنوبى، بعدها تمددت على السرير ودخلت فى النوم؛ فأحسست بأصابع زوجتى وأختها ترفعان الغطاء عن بطنى، وتعبثان بأعضائى.

وجدت نفسى أجرى وسط منزل ريفى، تمتلئ ردهته بالغرف الواسعة، وشاهدت أخت زوجتى تخرج شبه عارية من حجرتها تبحث عنى، وتختلى بروحى فى أحد الأركان، احتضنتنى فى دفء ونشوة، قائلة: "هاقطعك"، ضغطت على نهودها، ولاطفت جسدها بنعومة، فأخذتنى إلى حجرة مظلمة، لنختبئ من العيون.

النشوة تقتلنى، وهى تدعك صدرى بحنان، فأهرس مؤخرتها بأطراف أصابعى مشتاقًا إلى لحس فرجها الممتلئ والمغروس فى قضيبى، عند ذلك أحاطتنى بيديها، والتهمت رقبتى.

سمعت همسًا بالحجرة فابتعدت عنها، وفوجئت بجدتى تجلس على سريرها النحاسى وتغطى رأسها بشالها الأخضر، وتقول بغضب: "مين هناك؟"، انسحبنا هاربين مرة أخرى لردهة المنزل، عند ذلك نادت زوجتى على روحى، فعدت منتشيًا إلى حجرتها فضحكت قائلة: "كنت فين يا نور عينى؟"

تجاهلت مداعبتها، وخرجت من باب المنزل، وصعدت إلى هضبة عالية محاطة بميناءً يضج بالحياة، وعندما قابلنى البحارة حاملين أدوات الصيد استعدادًا للرحيل، سمعت صراخ عمال الجمرك هاتفين بسقوط الإدارة، ورافعين اللافتات التى تطالب بحقوقهم.

جريت من خلفهم، باحثًا عن نفسى، متجاهلاً سماع شعاراتهم المكررة: "الأجور والرعاية والمعاملة والأمان".

كتبوا اللافتات التى رفعها عمال عجائز بأيادٍ مقطوعة بلون الدم، وسار وراءهم عمال بعيون واحدة، وانطلق آخرون وراءهم فوق كراسيهم المتحركة، آملين جميعًا إمطار السماء أطرافًا صناعية تجعلهم فخورين بعضلاتهم.

ركزت الكاميرات التى تدور بينهم وتلتقط صور قادتهم الذين يرفعون أياديهم، مشيرين بعلامات النصر على أصابعهم المملوءة بالتجاعيد والجروح.

امتلأ الميناء بعساكر مشاة البحرية والسيارات المجنزرة، استعدادًا لفض الاعتصام، وحين اشتدت المعركة، شاهدت الصحفيات المملوءة أجسادهن بالنشوة يتنقلن بين المعتصمين كالفراشات، ويتسابقن على سرد تفاصيل المعركة التى بدأت، ولا يعرف أحد متى تنتهى.

عدت للمقهى حائرًا، فاندهش "سمير" القهوجى من ملابسى، ووضع أمامى كوبًا من الشاى قائلاً: "البلطجية يملأون الميناء، فسألته فى براءة: "ألا تتذكرنى؟" نظر فى وجهى قائلاً: "انت من بَحَرِى؟"

حاولت تذكيره بحضورى اليومى للمقهى، ووصفت له شقته، وذكرت أسماء أولاده، ومشاكلهم مع صاحب المطعم الذى يملأ شقته بدخان السمك، ويزفر غسيل زوجته النظيف.

نظر فى ذهول ناحيتى، قائلاً: "انت مين؟" لم أرد، فاستكمل بحلقته قائلاً بخوف: "أى خدمة يا باشا؟ "، رفض أخذ الحساب، وتركنى عائدًا لزبائنه.

تقلبت فى سريرى، متلمسًا رؤية أى وجه أعرفه، وعاودت البحث بين عيون الرواد، علَّنى أسمع صوت أحد من أصدقائى.

" سمير "

بعد يقظتى كل صباح، وتناول إفطارى مع زوجتى وأولادى فى صمت، أتوجه إلى المقهى ملبيًا طلبات زبائنى، أملاً فى المزيد من البقشيش.

عشت حياتى الطويلة غارقًا فى الديون والجمعيات، رغم دخلى العالى من هدايا الأجهزة، بعد انتهاء ورديتى أذهب إلى بورصة القهوجية، وأقابل زملائى نتبادل النكات وندخن الشيشة ونلعب الدومينوعلى مشاريب.

لم أهتم بمن يحكم أو يحاكم، المهم أن تمتلئ جيوبى كل ليلة بالجنيهات التى توفر لزوجتى وأولادى ثمن الطعام، لم تشغلنى الخلافات بين الرواد، فقط يمكننى الانحياز لجانب الزبون الذى يدفع أكثر.

يعرف الجميع أننى أتلصص على زبائن المقهى، وأنقل حواراتهم للمخابرات، وأتباهى بعلاقاتى بالبهوات الذين يتصلون فى أى وقت ليسألونى عن هوية الرواد.

يعطونى المقابل ويسهلون حياتى، ورغم علاقاتى الطيبة معهم، لكنهم لم يتمكنوا من إغلاق المطعم الشهير الذى يفتح أبوابه ليل نهار تحت شقتى.

فى دهاليزهم ملفات لجميع البشر، حتى صاحب مقهانا لم يسلم من تلصصهم على حياته، ورغم ذلك يحترمنى أهل الحى، ويخافون منى؛ لمعرفتهم بعلاقاتى ودورى المخلص فى حماية تراب بلدى.

عند اقترابى من إحدى الترابيزات ينخفض صوت الزبائن، كأنهم يقولون فى سخرية: "نعرف مهنتك وعلاقاتك بالأجهزة يا سمير".

فى أيام الدراسة يتهافت الطلاب على الجلوس عندنا لرخص أسعار مشاريبنا، ولوجود ترابيزات المقهى قبالة البحر مباشرة.

يحكون عن مظاهراتهم التى تطوف بالمدينة، أعرف بحدسى ما يخططون له، وفى ليلة احتفالهم بعودة رفاقهم من السجون، سبنى أحدهم، ونظروا جميعًا باحتقار فى عيونى، فصممت على الذهاب لمبنى المخابرات دون استدعاء.

أجلسنى الضابط فى مكتبه، واحتسينا الشاى كأصدقاء، وحكيت بحرقة عما جرى وتخوفاتى على أمن بلدى بسبب عبث هؤلاء الصبية.

رمم روحى، وأكد أنه لولا أمثالى لضعنا فى خضم الفوضى، بهذه الليلة هاجمتهم الشرطة، وقتلت أحدهم بالشارع، فأصبت بالحزن والضجر دون داع، ولم أكن أتصور تحرك الأجهزة بهذه السرعة.

بعدها أحسست أن امرأتى وجيرانى وصاحب المقهى، الذين كانوا يهابون ظهورى يحتقروننى ، كأنهم يتبرأون منى، وتساءلت يومها: "ماذا حدث كى تتغير الآية، ويتحول كل شيء للنقيض".

أتساءل اليوم بعد استبدالى بكاميرات تضعها الأجهزة فى كل مكان: "هل كان سيرفض جيرانى أو زملائى هذا العمل لو عرض عليهم؟ ألم يتمنوا جميعًا التمسح فى الضباط؟ ألم يزورونى فى منزلى لأتصل بالأجهزة لتفرج عن أبنائهم المحبوسين فى مشاجرات الحوارى؟"

أعرف حقدهم وكرههم لكونى النادل الذى يعرف البشوات، تبجحوا الآن، وعايرونى بعلاقتى بالمرأة التى كانت تعمل فى شقق المدينة كخادمة.

تعرفت عليها بمبنى الجهاز، وتوثقت علاقتي بها بعد علمي بعملها مثلى مرشدة على زبائنها، وفى يوم أسود شج أحد الصبية وجهها بعد افشائها سر أحدهم، وكان قد ضاجعها بالقوة ولم يعطها عرقها.

توعدته، وحايلته ليستضيفها فى شقته التى تركت فيها المخدرات، وأبلغت عنه البوليس ليقبض عليه متلبسًا بجريمته.

لكنّ زملاءه الذين عرفوا ما جرى أخذوا بثأره، من ستر المولى عز وجل أننى لم أكن معها هذه الليلة.

حينما شاهدت أحد الطلاب يقف على بابى، وأنا أحكى لها عن ذكرياتى مع الضباط والأجهزة ، رحلت، ولم تعد مرة ثانية إلى سريرى.

لا أدرى كيف أستكمل حياتى، فعشيقتى التى كانت تسمع حديثى عن حياتى البائسة غادرت ، وحتى الضباط الجدد استبدلونى بصبية صغار يستخدمون أجهزة التليفون ، ويتلصصون على الجميع وهم فى منازلهم.

أملى الوحيد فى هذه الليلة الباردة هو عودة المرأة التى كانت تسمعنى باندهاش.

" حارة "

صحوت من نومى على صراخ وضجيج بالشارع، فتحت البلكونة متفحصًا السماء، شاهدت وجوه الصبية الذين يملأون الأرصفة يستمتعون بصوت السكاكين التى تمزق الأجساد غير مبالية ببقع الدم التى تنزف ، ولمحت شارات العصابات التى احتلت المدينه ترفع بنادقها الآلية دلالة على قوة نفوذها ، فأحسست بالخطر يملأ أعماقى.

سمحوا للصبية والفتيات، بضبط النواصى، والقبض على زمام الأمور، فتحوا بيوت سرية بكل حارة، وشكلوا طرقًا للتعاون، وأداروا بكفاءة عملهم عن طريق مجالس الحوارى، وسطرّوا قانونًا سريًا ليحكم عملهم الذى تقضى نصوصه بالتخلص من الجواسيس .

يرتبون عن طريق مجالسهم المدارة بطريقة جماعية شئون المهنة، وضبط إيقاع الشوارع، وحين تتلقى المحافظة شكاوى العامة، تصدر الأوامر لتلقين العصابة المخالفة درسًا لا ينساه التاريخ.

فى هذا الوقت أشار أحد جيرانى إلى رأسى المتدلية من البلكونة، قائلاً: "انزل يا بن الكلب يا وسخ "، واستكمل آخر، وهو يرفع السنجة ناحيتى: "أحزمه يا باشا!"، فصرخ كبيرهم، قائلاً: "دوره لسه مجاش يا غجر"، عند ذلك عدت سريعًا أبحث فى الحجرات عن زوجتى وأولادى.

أغلقت باب الشقة ، وخرجت للشارع المكتظ بالبشر والعجل والسيارات، متجاهلاً الدم المتراكم فى الحفر، وحين قذفنى أحد الصبية بحجر فى رأسى تيقظت وهربت إلى محطة الباص، وركبت الأتوبيس، الذى اخترق زحام الهادرين، وتهت وسط رائحة عرق الركاب.

تراقص الأتوبيس يمينًا وشمالاً متفاديًا أكوام الحجارة التى ملأت الشارع، فتحركت أجسادنا المتلاصقة ككتلة واحدة فى الناحية المعاكسة لانحنائه.

بعدها أتجه بخفة إلى شارع الترعة غير عابئ بالزحام، وأحسست بأيادى الركاب تعبث فى "ليتى"، فوضعت كفى على مؤخرتى مندهشًا من أفواههم الساخرة من حرصى الزائد على شرفى.

وحين ركبت وجوه عابسة غير عابئة برقعتى الواضحة نزلت فى محطة المصنع، استقبلنى "حمادة"، بائع البطاطا، بابتسامته الودودة، وناولنى ثماره الساخنة، وعندما نظرت للسلاح المخفى بين أجولته، هدَّأ من روعى قائلاً: "أكل العيش مر يا أستاذ".

لا أعرف فى عملى سوى "ضيف"، الساعى الذى لا أعرف اهتمامه المتزايد بتلبية احتياجاتى، أشعر بأنه يراقبنى، لكنى لا أعتقد بأننى لا زلت مثار اهتمام الأجهزة، ومع ذلك ستكشف الأيام سبب انشغاله بحياتى.

" ضيف "

تركت قريتى منذ زمن بعيد، وعشت بالحى أنعم فى البقشيش، لم أهتم ببخل "عصام" صاحب المصنع، فيكفينى ما أحصل عليه من زملائى، يستغربون علاقتى بالمخزنجى، لكنهم لا يفهمون أن بحياته ومنزله سر يجعلنى أزوره كل ليلة حاملاً أكياس الفاكهة.

أزوره فى شقته، وأخفف عنه دائمًا قائلاً: "الصبر جميل"، وأذكره بحكمة النبى أيوب الراعى، ورغم ذلك يتمرد على حياته دون سبب.

أسعد بلحظات المودة بين أسرته، وأتمنى الزواج من أخت زوجته، لكن زوجها "بلبل" الذى يهجرها بالشهور لن يطلقها أبدًا.

يطلقون على بالعمل "كهربا" نتيجة انطلاقاتى وغزواتى التى لا تنتهى، فيمكننى تقديم المشروبات لأكثر من خمسين موظفًا، وسماع أصواتهم جميعًا بنفس اللحظة.

عشت أيامًا كئيبة بعد حرق زوجتى لنفسها، اتهمنى أقاربها بتركها طوال النهار بالبيت دون السؤال عنها غير مقدرين حياة المدينة التى لا وقت فيها للنوم أو السمر.

عندما أحضرتها من القرية، وأستأجرت مطرحًا بلوازمه فى الحى، طلبت منها ألا تخرج من الباب إلا فى وجودى، وخلال السنوات الخمس التى عاشتها معى لم تخط عتبة منزلى، إلا للذهاب إلى الدكتور ليعرف سبب عقمها.

بعد وفاتها قاطعنى أهل قريتى ، وانشغلت عنهم فى خدمة زملائى بالمصنع، وعندما جاء المخزنجى ليعمل معنا، وظل شهرين صامتًا، ولم يطلب منى شايًا أو قهوة، اقتحمت المخزن، وبيدى كوب الشاى، وحلفت ميت يمين ليشربه.

كررت عزوماتى ورفضت أخذ الثمن، فتوطدت علاقاتنا، وبدأ يحكى عن ماضيه فى تنظيم مظاهرات بالمدينة التى درس فى جامعتها، وفتاته التى تمناها ولم يتزوجها، حكى عن أشياء كثيرة كأنها إله منزه عن الخطايا.

وحين مرض وغاب عن العمل، ذهبت إلى شقته حاملاً أكياس الفاكهة؛ لأطمئن عليه، رحب بوجودى وعاملنى كأخ، وتعرفت يومها على أخت زوجته، ورغبت فى العيش بين أحضانها.

توطدت علاقاتى بأسرته سريعًا، وأصبحت واحدًا منهم، ينامون ويتشاجرون أمامى وأتدخل بينهم كأخ، ومع مرور الوقت أحسست تجاه زوجته بمشاعر جياشة، فى تلك الأحيان لم يمانع المخزنجى من نومى بمنزله.

عرف رغبتى فى الزواج من "أزهار"، ولم يعترض، وتمنى طلاقها من "بلبل" كى يبارك حياتنا الجديدة.

وفى ليلة مبهجة، تركنا المخزنجى، وذهب للنوم كعادته، لحظتها نادت "أنهار" من حجرة البلكونة كى أساعدها فى فرش السجادة، وعندما انحنت شاهدت نهديها البارزتين أمامى فانقضضت عليها، واستجابت المرأة سعيدة بجنونى، ورغم أن أختها "أزهار"، خطيبتى، تلصصت على تأوهاتنا، لكنها جلست بالصالة، وراقبت معاشرتنا بشبق لم أتخيله فى حياتى.

بهذه الليلة خرجت من شقتهم، وجلست على المقهى القريب من حجرتى، مندهشًا من رزقى بامرأتين فى ليلة واحدة ، ولم أتصور معاشرتى للمرأة التى تساعدنى للارتباط بأختها، ولكننى عجزت عن فهم حكمة الخالق فى اختيار مصيرنا.

بعد تزايد الفوضى لم يعد شيء مأمونًا، لكننى أثق فى نيل مرادى كى أصبح صهر هذا الرجل الذى يثق فى أخلاقى، ولا يعرف قيمة النعيم الذى يعشش داخل شقته.

اندهشت لثقة مدير المصنع فى شخصى المتواضع وإرساله معى كل شهر مهايا الضابط، وموظفى البلدية.

أذهب إليهم محملاً بالهدايا، فيستقبلونى كملاك، ويجلسون معى بالساعات، ويسمعون تفاصيل ما يجرى بالمصنع والشوارع.

" مخزن"

أنزوى فى المصنع، راضيًا بقدرتى فى معرفة مئات الأنواع من البضائع، وغير مبالٍ بحركة يدى السريعة التى تعمل كأنها آلة مصممة لكيِّ الملابس، ووضعها فى الأكياس.

لا أسمع طوال اليوم سوى طلبات زملائى: "هات نمرة عشرة مقاس سبعة وستين يا حمار، هات يا بجم نمرة تسعة مقاس تمانية وأربعين".

عندما ينتهى يومى، أعيد ترتيب الأرفف، وأرتدى ملابسى، وأخرج متخفيًا، كأنى عفريت خرج ودخل من وسط جهنم، دون أن يلمحه حارسها الأمين.

لم يشعر مدير المصنع بالاستياء أبدًا من توبيخى أو خصم جزء من راتبى، يطردنى ساعة الغداء من المخزن، ويغلقه على نفسه منفردًا بإحدى العاملات أو الزبائن، ويندهش من عدم امتعاضى لممارسته الرذيلة.

لم أعرف وسط ضجيج زملائى، إلا الساعى الذى فرض نفسه على وجودى، وأصبح بين يوم وليلة يعاملنى كصديق، ورغم استيائه من طريقتى المسالمة، إلا أنه يتعاطف مع مصائبى.

يسبنى زملاء العمل، ويسخرون من أدائى، وثقل سمعى، ورغم ذلك لم أشتكِ يومًا لأحد، يردد المدير دائمًا بأنه يجب حصولى على الجائزة الدولية للعامل المثالى.

يأتى فى الصباح يفتح الأبواب، ويجلس وحيدًا بالساعات، يجرد ما تم بيعه وما تبقى، لكن ذاكرتى كما يشهد أفضل من دفاتره، ورغم ذلك لم أحظَ يومًا بوقف الخصم.

يتاوينى المخزن من رعب عيونهم، ويعيننى على الاستمرار فى ممارسة عملى، لأحصل كل شهر على راتبى الذى يفتح بيتى.

فى الأيام الأخيرة عجزت عن المرور بالشوارع الممتلئة بالجائلين الذين يبيعون كل شىء، ويسبون بعضهم، ويسرقون الكحل من العين.

حين ازدادت مشاجراتهم مع أصحاب المحال على الأرصفة التى يفرشون عليها بضائعهم، تحول الحى الذى كان ينعم بالبراءة، والمتباهى بمحاله الفخمة، إلى سوق كبيرة معجون فى الصراخ.

الشوارع مكتظة عن آخرها، والمارة يهرولون دون هدف فى جنون، ولا أدرى لماذا كان الوصول للمصنع هذا الصباح أشبه بالحلم؟

فى نهاية اليوم نظرت للأرفف، وتابعت بعيونى ما تم بيعه وما تبقى، وتجهزت لأسئلة المدير عن حجم مبيعاته، وحين خرجت مقررًا الرحيل استقبلنى كعادته لتسجيل الطلبات الجديدة لملء المخزن من جديد ببضائعه المتنوعة.

الشىء الغريب أن الموظفين خرجوا قبل موعد الانصراف، ولم يتبق فى المصنع والفتارين سوى هذا الرجل الذى يدعى مدير.

تمنيت أثناء خروجى أن أشاهد "حمادة"، بائع البطاطا، وأستمتع بمذاق ثماره، فخرجت باحثًا عن أثره، تلفت يمينًا وشمالاً، ولم أعثر على عربته.

" حمادة "

منذ فترة طويلة أركن بعربتى على ناصية المصنع ليأتينى الرزق الوفير، أحس بفأل حسن كلما شاهدت المخزنجى الذي يسير بجواري كمهجور، أناديه لأخفف وحدته، ولا أعرف لماذا يذكرنى صوته بقريتى التى هربت منها بعد ضيق بيوتها على أجسادنا.

تعلمت فى شوارع مدنهم فنون الحياة، وعملت مع البنائين والحدادين والنقاشين، لم أترك مهنة إلا ومارستها، وعشت فى المقاهى وفوق الأرصفة عمرًا طويلاً أبغى لقمة عيشى.

عندما بارت المهن وغير الأسطوات جلودهم، وتحولوا لسائقى توكتوك وسماسرة تدهورت حياتى، وفى ليلة كاحلة كاد اليأس يقتلنى ، فجلست بجوار بائع الترمس أشكى حالى، فدلنى على الطريق قائلاً: "يمكنك استئجار عربة بطاطا من عند المعلم حسين".

وبعد ستة شهور، فهمت طريقة الشوى ، وعرفت وجوه زبائنى ، ومكان بائع الأخشاب، وسوق الخضار، ووفرت مبلغًا معتبرًا من عملى ، حينذاك اشتريت عربتى لأدور بها فى الشوارع، والميادين باحثًا عن رزقى.

حين اندلعت الفوضى، وأصبح الكل يحمل سلاحًا، أشار على أحد الجيران بالنزول إلى الميدان بين المعتصمين، وهناك تعرفت على نفسى، وفهمت سبب وجيعتى، خاصة بعد سماع هتافاتهم ومشاهدة أفلامهم.

اندمجت معهم وأصبحت واحدًا منهم، وتطورت حياتى، وتحولت عربتى لمخبأ للمنشورات والخل ولوازم الإسعافات ، حين يهجم البوليس أو البلطجية على زملائى، أقاوم بطشهم وأرفع جثث رفاقى، وأنقل المجروحين منهم إلى المستشفى.

الشىء الذى يبكينى بين الحين والآخر هو حال المخزنجى الذى واظب سنينًا على الحضور للمصنع دون كسل أو ضجر، اندهشت لخوفه، وحرصه الزائد على مواصلة رتابة الحياة، واسيته ونصحته كثيرًا ليبتسم للدنيا، ويزيل عن كاهله جبال الخوف.

حاولت إثناءه عن الدوران كل يوم فى الساقية، لكنه اعتاد السير مغمض العينين، عرفت أسراره وحكاية ابنته التى تصورها ملكة، حكى بأسى عن فتاته التى تركها فى يوم غير معلوم، ورغم ذلك لم أفهم سبب وجيعته، وحرصه على المواظبة فى الحضور كل صباح قبل زملائه.

أكد مرارًا أنه صادق شخصًا مثلى يبيع البطاطا، حكى عنه كأخيه، علمه القراءة والكتابة، حتى أصبح زعيمًا، لكن سيارات الشرطة دهسته فى اعتصام الشوارع الذى نظمه الباعة ضد قرار المحافظ.

أوقات كثيرة كنت أحس بأنه يقول الحقيقة، وأوقات أخرى أعتقدت أنه يبالغ وأن ما يذكره مجرد خيالات، لكنّ شيئًا ما دفعنى لسرد حكاياته على زملائى.

أكد مسئول خليتنا أنه يعرفه وطلب منى مراقبة تحركاته، فعدت مرة أخرى بعربتى أمام المصنع، حينذاك قابلنى بسعادة غامرة، وسألنى عن سبب رحيلى، كنت شغوفًا بالجلوس معه لأسمع حكاية ابنته الجميلة، لكننى لا أفهم، حتى الآن كيف لرجل مثله الانزواء فى الظل غير عابئ بالأحداث التى فجرت المدينة.

حين حددنا ساعة الصفر للخروج، كنت أثق بأنى سأراه مرة أخرى خاصة أن ابنته "عزيزة" انضمت إلينا عن طريق زملائنا فى الميدان.

شىء ما يشدنى إليها، فى الليلة القادمة ستلازمنى فى قيادة مظاهرة عمال المحطة، وتهتف بجوارى دون أن تعرف بأننى، بائع البطاطا الذى ترك قريته، ونسى أهله.

فى الخلية التى التحقت بها سمعت المحاضرات عن أصل الإنسان وطرق مص عرقنا، لم أكن أصدق فى البداية ما يقال، لكن الشوارع وحكايات المرضى أكدت صحة ما يقوله زملائى.

داخل التنظيم شىء آخر يشدنى إليهم، شىء أشبه برحيق العائلة المتجانسة، نخاف على بعضنا ونطمئن على الغائبين، ونساعد زملاءنا فى المرض، ونعاونهم كى يتمكنوا من الاستمرار كرفاق شجعان.

نجهز أنفسنا لليوم الأخير، سنخرج بالآلاف إلى الميادين، ونهز العروش بأصواتنا، سنزحف بأرواحنا إلى قصورهم، ونستولى عليها، ونحولها إلى مدارس ومستشفيات.

فى هذا اليوم سنعلن تأسيس جمهوريتنا، وحينذاك لن يكون فى بلدنا بأس أو محتاج.

" ميدان "

سرت بالشوارع المحيطة بالمصنع مندهشًا من الصمت الذى حل على الدنيا، تساءلت فى حيرة عن سر اختفاء الباعة، ورغم ذلك واصلت سيرى حتى المحطة غير عابئ بالبضائع المتناثرة فوق الأرصفة، وجلست وحيدًا على كرسى المحطة الخرسانى.

فوجئت بجثة رجل معلقة أمامى على عمود النور، ومكتوب بالدم تحت رأسه المفصولة عن جسده، "مصير الخونة"، تلفت حولى فى خوف متذكرًا معارك البلطجية الذين اغتصبوا ابنة صاحب إحدى المحلات لطرده أحد الباعة من على الرصيف.

كرى عليهم القتلة ليلقنهم الدرس، هاجموهم وذبحوا البائع المغتصب، وعلقوا رأسه على العمود دلالة على نفوذهم.

اعتقدت، وهم يحكون أننى أحيا فى أحلامى، فلم أهتم بباقى الحكاية، وواصلت عملى غير عابئ بالخوف الذى ملأ نبرة أصواتهم.

حينذاك سمعت همسًا لصبية يجرون وراء بعضهم، ويرفعون الجراكن المملوءة بالبنزين، ويفرغونها من تحت أبواب المحلات، رافعين السواطير والطبنجات فى أياديهم بخفة، كأنهم شياطين أو عفاريت، دخلوا المحلات وجروا أصحابها على الأرصفة، وحشوا بطونهم، وألقوا عليهم البنزين، وأشعلوا النار فى أجسادهم.

تحول الشارع لبركان، وحرقت النار أسقف البيوت القديمة وأغصان شجرة عتيقة فى برود، وعندما نظرت لعيون الصبية فى غرابة، بادلونى الصمت، وتجاهلونى كأننى غير موجود.

بتلك اللحظة سحبنى شخص لا أعرفه من يدى، وأخذنى من شارع لزقاق، وتركنى بميدان واسع يمتلئ بالخيام، فجلست على رصيفه مندهشًا من البهجة التى تعلو وجوه رواده، وفوجئت ببائعى الكشرى والفول والشاى يعرضون سلعهم على المحتشدين، فى فخر وحب.

سألت نفسى عن هوية الشخص الذى يراقبنى ويخرجنى دائمًا من المصائب التى تحل علىّ دون سبب، لكننى اندهشت لصمت أعماقى، فتجاهلت أسئلتى، وتأملت النور الذى يغطى سماء الميدان.

حينذاك نادانى بعض النساء لأدخل خيمتها، وعندما تجاهلتها اقتربت، وسحبت يدى داخلها قائلة: "سوف تستمتع معى بليلة لم تحلم بها فى حياتك".

نزعت ببراعة تنورتها من فوق لحمها الأبيض، فظهرت كحورية مملوءة فحولة، وأمام عجزى، تظاهرت المرأة بالبكاء، معللة سبب عملها، بموت أبويها، وحينذاك سمعت من خلف الخيمة صوتًا خشنًا لامرأة "عجوز"، قائلاً: "أدامك خمس دقائق يا صابحة والمعلوم هيزيد".

فكت أزرار قميصى، وأخلعتنى بنطلونى بسرعة والتهمتنى، فى هذا الوقت سمعت صوت رجل متجهم الوجه ينام تحت امرأة سمينة بجوارى، ويقول بلهجة غريبة: "تخصصت بعض الخيام فى بيع المخدرات وأخرى للسلاح، لكن الأكثر رواجًا هى خيام المومسات، وجدن من الفوضى جوًا صالحًا لإنعاش مهنتهن".

زأرت المرأة من فوقه، بينما ظل عاجزًا عن مجاراتها، فصرخت قائلة: "اتعدل يا موكوس، وبطل كلام، علشان أكيفك".

تجاهلته وانشغلت بامرأة الميدان التى قامت بمهمتها على أكمل وجه، ودعتنى كفاءتها لدفع المبلغ المعلوم في رضا، وارتديت ملابسى سريعًا متجاهلاً رائحة العرق الذى يملأ خيمتها، وهربت متخفيًا فى ظلى الذى يعدو أمامى، واستوقفتنى تجمعات لصبية يغطون وجوههم بأقنعة سوداء، ويمسكون بأياديهم لافتات وسكاكين، كأنهم يستعدون لمعركة حربية، ويتقدمهم شاب ضخم، تظهر عيونه من القناع الشر البادى فى الأفق.

على الرصيف المقابل شاهدت تجمعًا لشباب ملتحٍ يرتدى ملابس بيضاء قصيرة، ويهتف بسقوط الأقنعة، ممسكين فى أيديهم بخناجر صغيرة، ويخبئون نصلها الحاد فى فتحة جلاليبهم الواسعة.

هربت بعيدًا عن جمعهم فأستوقفنى أحد الضباط، متسائلاً عن هويتى، بحثت فى جيوبى مندهشًا من عيونه الناعسة، فتركنى، غير عابئ بملابسى.

سرت فى الميدان إلى بقعة أخرى، تمتلئ بالغناء والأناشيد، ويقف على أسوارها رجال يعرون نصفهم الأعلى، ويهتفون بالموت، التف حولهم فتيات ناضرات تفوح رائحتهن بعطر يملأ السماء بالبهجة، وكتبوا على جباههن: "عايزين نموت"، "احنا المشاغبين"، "فاكرين شهدائنا".

صرخ أحد المجاذيب بجوارى قائلاً: "ثورة ثورة، أيام وبنعيشها، طالع ربيع، نازل خريف، بيقطع فى أجسامنا"، وسألنى عن سعر كيلو الليمون، وجرى فجأة من أمامى رافعًا جلبابه، مظهرًا قضيبه المرتخى، ومؤخرته الداكنة.

عند ذلك خرج بعض الرجال من الخيام، وناولنى أحدهم ورقة مرسومًا عليها صورة شاب صغير، قائلاً: "القصر قتل ولادنا"، ذكرونى بوجوه أصدقائى الذين ملأ صوتهم الدنيا يومًا ما بالحب.

أستعيد وجوههم وهم يملأون رحاب الجامعة، بينما تلف المجنزرات حولنا وتدور غير عابئة بأصواتنا، وحين اشتدت المعركة، وزاد الكر والفر وسط هلع الجميع، أمر ضابطهم الحليق بسحل المتمردين الذين يغوصون فى الميدان.

جريت دون هدف أبغى النجاة، وفوجئت بأحد المارة يصرخ فى وجهى ويحتضننى، متسائلاً عن وجودى وصحتى وعملى قائلاً، بود يفوح من عيونه: "أنا محمد صاحبك مش فاكرنى؟"

ذكَّرنى بأمسيتنا فى رحاب الشط، وأصدقائنا الذين تولوا المناصب العليا، حكى وقتًا طويلاً عن أحداث لم أعد أتذكرها، فجأة سألنى بغرابة: "أنت مبتشفش تليفزيون؟" واستطرد فى اندهاش: "ولادك عاملين إيه؟"

" محمد "

من يصدق أن هذا الشخص، هو قائد فرقة مسرح الجامعة، والأول على دفعته، إذ كيف تدهور حاله، ولم يعد يتذكر حتى اسمى؟ كنا نعتقد أنه سيصبح نجمًا فى المستقبل، أثار غيرتنا بفراسته، وعلاقاته بأجمل بنات دفعتنا، كانت تقدم له أسعد لحظات حياته، لكنّ شيئًا ما ضاع من عينيه واختفى للأبد.

الآن أتذكر حياتنا المشتركة بالمدينة، وتقاسمنا للملابس والكتب، وزيارته لمنزلى، وتناوله معى وجبتى الأسبوعية التى تعدها أمى بمناسبة حضورى كل إجازة.

أدت هتافاته إلى إيمان مئات الباعة بقضيتنا، وحولت نبرة صوته مواجهتنا ومعاركنا إلى نصر دائم.

يوم احتفالنا بعيد العمال أمسك بالميكروفون، وخطب فى الطلاب، فسخر منه رئيس الجامعة، وهو يقف بمكتبه، فطلب منه النزول إلى الساحة لمناظرته.

لم يتوان الرجل العجوز، وحضر وسط الآلاف الطلاب، وجلس أمامه على المنصة فناقشه فى ارتفاع أسعار الكتب وبنود اللائحة، وطالبه بالتدخل كرجل للإفراج عن زملائنا الذين سلمهم للبوليس، وأدى صوته القوى إلى هروب العميد من أمامه وفى لحظات أحاطتنا قوات البوليس غير عابئة بأسوار الجامعة.

تخفى كالشبح فى المدينة، وبين حجرات السطوح، ولم تتمكن الأجهزة من القبض عليه بسبب علاقاته بالمرأة التى تعرف مخابئ المدينة وشوارعها.

وبعد انتهاء دراستنا، وضياع حلمه بالتعيين فى الجامعة، غادرنا فى صمت.

استكملنا نشاطنا وسط العمال والطلاب، وتزوج بعضنا، وانشغل آخرون بوظائفهم الحكومية، وأمام مطالب الحياة ولوازمها اضطر أغلبنا للعمل كمستشارين فى الأجهزة.

حين أحسست يومًا باليأس يملأ روحى، بسبب العمر الذى يجرى والأهل الذين يطالبونى برد الديون، ذهبت إلى زميلى الذى يعمل مستشارًا للمحافظ، فاستقبلنى بحب، وأصدر أوامره بتعيينى محاسبًا بالديوان.

انشغلت بحياتى، وتركت نشاطى، ومع ذلك لا زالت أواظب على قراءة الجرائد والكتب، وأتابع أخبار زملائى الذين أصبحوا رجالاً مهمين داخل السلطة، وحين تطورت الأحداث وخرج الناس، عدت كغريب وسطهم باحثًا عن نفسى، وعندما قابلته، وسألته عن مصيره، تجاهلنى وسار بعيدًا كأنه لا يعرفنى.

أتذكر الآن يوم سؤاله عن مكان رفيقته "نسمه"، نظر إلىّ بغضب كأننى أسأت إليه، واختفى من حياتى، ولم يعد له أثر لا فى المسرح ولا الجامعة، ولم يحافظ على صداقة أحد متخيلاً أننا ساهمنا فى مأساته.

الشىء الغريب أن الفتاة التى عشقته وأخفته عن أعين البوليس سنوات، وضمها إلى التنظيم اختفت هى الأخرى، كنت أتمنى يوم مقابلته بالميدان سؤاله عن حياتها، وهل تزوجها أو أنجب أطفالاً منها؟ تمنيت الإجابة عن السؤال الذى حيرنا جميعًا، لماذا افترقوا وهربوا من التنظيم فى يوم واحد؟ أهناك سر غامض أنهى علاقتهم؟ أيمكن أن تهددهم الأجهزة ليتواروا فى المجهول؟ للأسف اختفى مرة ثانية، ولم أحصل منه على الإجابة.

" رحيل "

تركت زميلى "محمد" الذى ادعى صداقتى، غير عابئ بأسئلته، وقررت الذهاب للمنزل للاطمئنان على ابنى الذى يبتسم وهو يحكى عن معاركه فى الشوارع، ستحثنى زوجتى بالقسوة على وحيدتى التى تخرج كل يوم من النجمة إلى الميدان ولا تعود إلا فى "أنصاص "الليالى، سأدثر قلب ابنتى، وأقول لها بحب: "خلى بالك من نفسك يا عزيزة".

ترجلت مسرعًا سلالم المنزل، وفتحت باب شقتى، ففوجئت بابنى عاريًا، متوعدًا أخته بالقتل، وبقايا الدم تملأ جسده، جلست على كنبة الأنتريه محاولاً فهم ما يجرى، فصرخ فى وجهى قائلاً: "بنتك بتشتغل شرموطة يا عم الحاج، النهاردة رحت جبتها من خيمة الدعارة اللى فى الميدان، مش مكفيها رجالة الحارة".

سمعت صوتها الباكى، وهى تصرخ، قائلة: "أحلف على المية تجمد يابا إنه كداب"، لملمت عريها فى صدرى، فشخر قائلاً: "كله منك ومن سكوتك، سيبت الحبل على الغارب، ومبقناش عارفين إحنا مين".

خرج من الباب صارخًا فى وجهى: "أنا رايح أدور على مراتك وأختها يا سيدنا"، نظرت لابنتى فى حب مواسيًا أحزانها، بكت فى حضنى، وتركتنى لأدخل الحمام، وحين ناديت عليها لتأتينى بالفوطة، لم ترد، فخرجت للصالة باحثًا عن أثرها.

جبت حجرتى ومطبخى، آملا العثور عليها، وناديت بعلو الصوت على الجميع ولم يسمعنى أحد، كأن الأرض انشقت وبلعتهم.

أعادنى الدق المتواصل على بابى لهدوئى، فتصورت أن أولادى عادوا، فقمت مهرولاً فاتحًا ضلفته المكسورة، وفوجئت بصراخ جيرانى الأفندية فى وجهى قائلين: "فضايحكم المجلجلة جرحت عفة منزلنا الشريف".

قال أكبرهم سنًا بهدوء، مشيرًا بقلمه إلى وجهى: "نخاف على أبنائنا وزوجاتنا من عمايلك السودا، ارحل بعيدًا عنا يا أخى".

استكمل أحدهم متشفيًا وهو يمسك فى يديه منشورًا: "تم عزل ابنك من مجلس الحارة، وإذا رغبت فى العيش بيننا، يجب أن تعمل عشر ساعات مجانًا فى تنظيف أسرة الدعارة وأرضية البارات".

صرخ آخر قائلاً وهو يسلمنى ورقة موقع عليها من الجميع: "توصية المجلس الجديد قتل ابنك، وامتطاء زوجتك وأختها ثلاث سنوات متواصلة فى بيت السر، مقابل إطعامهم وجبة واحدة كل يوم".

أصوات النساء والرجال الصارخة جعلت الصبية الصغار يهجمون عنوة على "الدواليب"، راغبين فى حرق فرشى، ودفتر المخزن الذى أسجل فيه حركة البيع والشراء.

حملوا السيوف اللامعة فى أياديهم، وملأوا روحى بالخوف، وهم يدهسون بأقدامهم الثقيلة جثتى، فجأة جرى أحدهم باندفاع ناحية حجرتى ليمزق مراتب السرير باحثًا عن أسرارى.

عندما قذفت النساء بالأوانى المملوءة بالخراء فى وجهى، وغادرن الشقة رافعين أياديهن بعلامات النصر، وعيونهن المفتوحة تضخ بالسعادة، شعرت بأنهن يأخذن بثأر فتاتى التى تركتها، وهربت غير عابئ بصرخاتها ودموعها.

فى هذا الوقت هددنى جارى كبير السن، وهو يقف على مدخل الباب، قائلاً: "أمامك خمس دقائق لتختفى للأبد من حياتنا ".

اسودَّت الدنيا فى وجهى وسط عيونهم المغلولة، فغبت عن الوعى متذكراً الجسر الذى كان يفصل قريتنا عن نجع اللصوص، وشاهدت امرأة عجوزًا تصر على مهاجمة الغجر الذين سرقوا جاموستها، رغم تحذيرات الجميع من عبورها، لكن روحها أنطلقت أمامنا وترجلت وحدها على الجسر الذى أودى بحياتها.

" نسمة "

عندما رأيته أول مرة على شاطئ البحر، سألنى عن اسمى كعاشق، وطلب بتودد معرفة مكان ينام فيه ليلته، أخذته من يديه إلى اللوكانده التى أعمل فيها، وأستأجرت له حجرة السطوح المطلة على البحر.

كنت أقابله كل يوم وأجلس معه بالساعات، وأرتب ملابسه، وأسمع صوته المندفع إلى قلبى ليروى حياتى بدفء لم أحسه من قبل، حكى عن ماضيه وقريته، وعرفت أصدقاءه وأقاربه، كأننى ولدت وتربيت معه، عاملنى كأميرة طوال فترة دراسته، وفى الإجازات الصيفية كان يكتب الخطابات من القرية، ويرسلها إلى اللوكاندة، يحكى فيها يومياته وانتظاره اللقاء الذى يجمع أرواحنا.

امتلأ وجهه بالنضارة، وهو يقرأ الكتب التى تشرح طرق المساواة، واجتهدت لأكون ندًا لحبه الذى يرفرف على قلبى، عرفنى بزملائه الذين سهروا بحجرته سنينًا، وناقشونى فى قهر الروح.

وجهه المملوء براءة، ولسانه الذى يخر بالعسل جعل البائعين يؤمنون بإخلاصه، وأصبح بينهم قادة يطالبون بسوق يفرشون فيه بضائعهم.

شاركته المظاهرات التى طافت شوارع المدينة تندد بالفحش، وأظهر صوته الخلاب وهو مرفوع على الأكتاف إخلاص قلبه، لدرجة أننى شاركته عضوية التنظيم السرى الذى كونه مع زملائه، وبعض العمال لمواجهة عبث السلطة التى قامت بمطاردتهم.

رغم ذلك استمروا يصرخون، ويندِدون كأنهم خلقوا لتطهير المدينة من الدنس.

سنينًا طويلة لا أعرف عدد أيامها، كنت أعيش معه كالملكة، أصبحت أختًا لأصدقائه الذين عاملوه كأب، ولم أنس رائحة ملابسه، ولون خطوط خطاباته التى أرسلها كثيرًا من قريته بادئًا بكلمته المفضلة: "حبيبتى الغالية".

ازداد نشاطنا، وجندت إلى تنظيمه المئات، وأصبح وجودنا بالنسبة للأجهزة كالخفافيش التى لا يعرف أحد خط سيرها، نكتب بالإسبراى الأحمر والأسود على الحوائط شعارات ومطالب

الناس، ونختفى دون أثر، نفاجئهم فى الليل بمظاهراتنا التى أجهضت قوتهم، وحولتهم لصراصير أمام حشودنا.

مدنا بالأمل بجموحه وآماله، ورددنا هتافاته وسط آلاف المؤمنين بإخلاصه؟ كان زاهدًا لا يخاف، ورغم تحذيراتنا الكثيرة من جلوسه وحيدًا بمقهى الميناء وحديثه مع "سمير" النادل الذى نعرف علاقاته بالمخبرين، لكنه لم يهتم بتهوميتنا، عشقنى وتمنى العيش بين إحضانى، سعدت كثيرًا وأنا أعد له العشاء كل ليلة، ومع ذلك لا أعرف كيف أستغنى عن حبى.

فى اليوم الذى شاهدنى ألاغى "سمير"، وأداعبه كى أتعرف منه على خطط الأجهزة، أصابه الجنون، وهرب دون أن يعرف سبب مقابلتى لهذا الأفاق، واختفى من حياتى، ولم يترك عنوانًا، أو إشارة تدل على عنوانه.

زرت قريته، فأكد أهله أنهم لا يعرفون عنوانه، أتذكر فى الأيام الأخيرة انشغاله بأشياء غريبة ، لكنى لم أفهم حتى الآن سبب هروبه، ألم يكن هو الآخر يقابل النادل ويسمع منه، رغم تحذيراتنا، أكان يعامله كإنسان، أم كان يستقى منه المعلومات ويمده بخطط وهمية ليبعدهم عنا؟ وهل فعلت أكثر مما فعله؟ أيستحق الإنسان أن يدهسه أقرب الناس إليه ليحس بالوجع، ألا يمكن أن تغفر الدنيا أخطاءنا ويعود، فى ذروة الأحداث نسيت أهلى وزملاء التنظيم، ومع ذلك لا زلت أعيش بالمدينة، وأذهب للشط كل ليلة، على أمل سماع صوته المغرد باسمى.

القسم الثانى: مشنقة

" زفة "

سحبونى كالكلب، بعد سرقة أثاث حجرتى، ولم يرأفوا بحالى، تحسست الدم المنسحب من شعر رأسى على وجهى، متذكرًا حرامى الغسيل الذى وقع فى فخ شاذلى الصياد الذى لا يرحم، وقلت لنفسى فى صمت: "الآن جاء دورك يا وحش".

أقدام الجيران، وأكفافهم تتفنن فى تلطيخ وجهى، ومؤخرتى بالضربات المتتالية، وتتجاهل صراخى، ويهمس أحد المارة بجوارى، مؤكدًا أن الأجهزة اجتمعت بعد سقوطى، وقررت إخراج كتيبة من الصاعقة لمحاصرة الحى والقبض على روحى.

قيدنى جنودهم بالسلاسل، ووقعت على الأرض فاقدًا توازنى، فصرخ جارى ببهجة: "جروه بالحبال".

اقتربوا ممتنِّين للفكرة، وهم يهتفون: "لا إله إلا الله، اليهود أعداء الله"، زغردت النساء، وطرقعت البنات اللبان، مظهرات لحمهن الطرى، أمام المندفعين نحو تجريدى من كرامتى.

و لولا اختفاء زوجتى، وأختها لامتطاهما الجميع أمامى مفتخرين بفحولتهم.

حاول بعضهم الدخول بأصابعه فى مؤخرتى، ليثبت لنفسه، وبشهادة الجميع طهر روحه من رائحة الأنجاس، عندما رفعوا جثتى المتهالكة إلى السيارة، انطلقت الموسيقى تملأ الحى بأغانيهم السعيدة عن صمود الشعب العظيم ومجده.

ارتكنت على جانب السيارة المنطلقة ماسحًا الدم عن أنفى، وسمعت لحن عجلاتها الخلاب، وهى تخترق الشوارع صارخة: "تيت.... تيت".

سارت وراءنا الجموع، تتراقص مبتهجة لوقوعى فى الفخ، وشاهدت عدسة الفضائيات تلتقط فرحة أهالى الحى، وتسجل مع الجيران تفاصيل حياتى، الجميع أنهى كلامه مفتخرًا بشموخ وكرامة الأجهزة التى لا تقهر.

مرت ساعات طويلة، وأنا ملقًى كالكلب بالسيارة، آملاً فى رى ظمأى، نظرت لعيون الجنود المحيطين بجسدى والتى رمقتنى بغيظ ويأس، فعجزت عن نطق حروف كلمة: "عطشان".

وعند وصولنا إلى أسوار المعسكر أمر الضابط جنوده، قائلاً، فى تعال وثقة: "قيدّوا السفاح وأغلقوا الأبواب".

لا أدرى لماذا تذكرت فجأة وجه "سمير" النادل وهو يحكى عن المرأة التى رافقها كعشيقته؟ كان يحكى عن الأوضاع الجنسية التى تبتدعها كل مرة، ولم أندهش من خياله الواسع، لأن فتاتى كانت تقوم بنفس الأوضاع فى سريرى، لم أكن أعرف أنه كان يحكى عن المرأة الوحيدة التى تفهم سر حياتى ووجيعته.

حينما ودعت الحى مجرورًا كالكلب إلى سيارة البوليس رأيت جارى "منسى" يخرج لسانه، وينظر لملابسى الممزقة بعينه اليتيمة شامتًا فى هزيمتى.

" منسى "

سنينًا طويلة عشت بجواره دون أن يقول فى وجهى: "صباح الخير يا جارى"، تعالى علينا لاعتقاده بأنه المفوه الحاصل على التعليم العالى.

لم يحضر فرحًا أو عزاء، سخر بصمته من حياتنا وطريقتنا، رغم فضائح زوجته وأختها التى يعرفها الدانى والقاصى، ولم يبادلنا الزيارات فى المواسم والشهور المفترجة، لم يصلى معانا العيد، أو يجالسنا فى المقاهى، وظل كشجرة جافة وسط الحى.

عاش كظل، يدخل ويخرج دون أن يشعر بوجودنا، وتساءلنا عن جنسه وأصله، ولم نحصل أبدًا على جواب.

حين كبر ابنه، لم يهتم بنصحه وترك الحبل على الغارب، وشاهده وسط الحارة وهو يعارك الشباب، ولم يكلف خاطره بأن يرشده أو يعتذر لجيرانه عن أفعاله، وترك ابنته تتبرج لتعلم البنات الخلاعة والحب، لم نسمع صراخه، أو سبه لها، وهى تعود فى أنصاص الليالى، رغم معرفة الجميع بأنها تدير خيام الدعارة بالميدان.

غطى على ابنه ليوزع المخدرات فى النواصى، وعّرص على زوجته لتعاشر زميله بالعمل دون حياء.

وحين انتشرت الفوضى، رفض الاشتراك فى اللجان التى حمت بيوتنا، وأخذ جنبًا كأنه غريب عنا، كنا نشك فى ولائه، ورغم ذلك عندما ضاعت هيبة ابنه وسط الشباب، تجرأنا عليه، وبلغنا الحكومة بألاعيبه، فعرفت بمرشديها علاقاته المشبوهة، وحينذاك سلطت على ابنه الصبية ليفتكوا بجسده منتقمًا من جنونه الذى طال أحد عيونى فى مشاجراته.

الآن نعرف سبب افتخار زوجته بلغاته الأجنبية التى يتقنها، لكننا حتى الآن لا نعرف الإجابة عن سبب وجوده بيننا، وصمته كل هذه السنين.

نعم حين حاصرت سيارات البوليس منزله، قبضنا عليه، وألقينا على وجهه الخراء؛ لأننا حلمنا بخروجه من الحى منكس الرأس.

بعد رحيله وطرد أسرته، التف الناس حولى، وطالبونى بالقيام بدورى كى لا تتكرر المأساة، فمن يحكم ويفصل فى مشاجراتهم إلا رجل قوى الشكيمة يعرف تاريخ، وأصل كل واحد فيهم؛ حينذاك اختارونى كرئيس لشياخة الحارة.

ومنذ ذلك اليوم لم يتنفس أحد بالمنازل إلا بإذنى، طبقت وصايا أولاد الليل التى نشأت بينهم، اخترت عشرة صبية أشداء ليعاونونى فى فرض النظام، وضع الحداد بأمرى بوابة حديدية على مدخل الحارة، وعينت عليها الصبية ليحرسوها ليل نهار، ويسجلوا حركة دخول الناس وخروجهم فى دفاتر يومية، ويحصرون فى خانة الملاحظات محتويات الحقائب التى يحملونها فى أيديهم، ويعطونى أولاً بأول التقارير عن نبض الناس وتحركاتهم.

اجتمعت بأهل الحارة، ووضعنا نظامًا لنمشى عليه، وطالبونى بإقرار عقوبات لردع المخالفين، وحين سمعت السلطات بطريقة إدارتى الجديدة، اختارونى رئيسًا لشياخة المحافظة.

طبقت نفس القانون، واختارت بكل حارة وحى مجلسا من الصبية الذين ماتت قلوبهم، وألزمت أصحاب مهن الدعارة والمخدرات والسلاح بدفع ضعف الإتاوة التى يدفعها أصحاب الورش والصناع كى أنشر العدل والمساواة بين الناس.

جمعت أموالاً طائلة وتقاسمتها مع الضباط الذين يغطون على عملنا، وكونت فرقة الموت التى تطبق العقوبات على المتمردين، وأضحت حياتى مملوءة بحكايات وطرائف لا يمكن لأحد أن يصدقها.

توطدت علاقاتى بشيوخ وصبية الحوارى، واعتبرونى أبوهم الروحى، وأضحت كلمتى القول الفصل فى كل شجار أو نزاع.

تستضيفنى كل ليلة بارات الحوارى، وبعد تناولى الطعام وتدخين الحشيش، تحيطنى النساء الفواحش، وتداعب أعضائى التى تيبست، ورغم بلوغى المجد الذى أدى لسماعى دبة النملة فى الخرابات، لكن ابنة هذا الرجل التى ما زالت هاربة فى مكان مجهول تصيبنى بالعجز.

تنتشر شائعات بأن الصبية المتمردين الذين يقاومون جهودنا، ويساندونها يتسلحون ويتخيلون أنفسهم منتصرين على رجالى المسنودين من العسكر.

يشكلون مثلنا فرقًا للموت، ويقومون بتفجير أسواقنا، ويهربون فى الجحور، ولم يتمكن رجالى أو المرشدون من القبض عليهم حتى الآن.

وصلتنى بالأمس إشارة من أحد صبيانى المزروع بينهم بأنهم ينوون قتلى، لكن الوصول إلى قلب "منسى" الأعور مستحيل، فمن يمكنه فك حصار صبيانى المسلحين بالموت والبارود.

امرأة واحدة تمنيت معاشرتها ككلبة فى سريرى، تملك مفاتيح الجميع، ورغم بدايتها كعاهرة فى أزقة الأحياء، لكن علاقاتها بالضباط وأولاد الذوات تفزع جموحى.

الشىء العجيب أن قادة المدينة اختاروها كممثلة عن الفواحش فى مجلس إدارة العالم، تحضر مملوءة بالأنوثة، وتشخر وتسب الدين غير عابئة بهيبة الضباط التى تعرف أسرار غريزتهم.

رغم ذلك أحس بأن الأيام القادمة تحمل الكثير من المفاجآت، أتمنى تطبيق قوانينى على ربوع المنصورة، إذ يكفى أن ينام البشر آمنين فى منازلهم، بصرف النظر عن ما يدفعوه لرجالى.

" ميزان "

أغلقوا النور وسمكروا الأبواب على جثتى المتهالكة دون نظرة شفقة، ونمت بعمق غير عابئ بوجوههم، وشاهدت نفسى نائمًا على سرير منزلى متدفئًا بالأغطية، وشعرت بأيادى زوجتى وأختها تعبثان بقضيبى، عاشرونى كعادتهما وخرجتا منتشيتين لحجرة مجاورة، تطل على حديقة واسعة، وتتدلى من أشجارها ثمار البرتقال.

استغثت بهما ليخرجانى من الظلام، تجاهلتا ندائى، ولم تسمع أناتى إلا فتاتى التى دخلت زنزانتى بوجهها الصبوح وقمطتها الحمراء، وذكرتنى ضاحكة برائحة طعامها، وجلست بجوارى، ورممت عظامى، ثم غادرت هى الأخرى حزينة.

أدى صوت انفتاح باب الزنزانة إلى يقظتى، خاصة حين صرخ العسكرى بحرقة: "أنت لسة نايم يا روح أمك".

سألنى ضابط "عجوز" دون مقدمات عن نور الحى المسروق، ودور أولادى وزوجتى وأختها فى نشر الفجور، وسألنى آخر بخبث عن رأيى فى الصلاة والصيام والحج وفروض الإيمان.

وقف بجوارهم رجال يرتدون ملابس ملونة، وسألونى عن أعماقى وفحوى التعليمات والأسرار التى يمدنى بها أعضاء التنظيم عن طريق ابنتى التى أعتبروها همزة الوصل .

حين سألونى عن الأماكن، والأشخاص الذين يأتون بأحلامى، سردت بالتفصيل كل ما أعرفه، لكننى عجزت عن تفسيرها، مسحت دمائى النازفة عن فمى، وقلت: "فى أعماقى رؤى كثيرة، لكنها لا تحقق".

اندهشوا من حيلتى وذكرونى بلقاءاتى المتكررة مع "سمير" النادل، ومضاجعتى لـ "صابحة"، مسئولة الدعارة بخيمة الميدان، واسترسلوا فى وصف علاقة أسرتى الوطيدة بـ"ضيف " الساعى.

غادروا الزنزانة بعد ساعات طويلة من التحقيق والتمحيص، وأغلقوا الأبواب، ووضعوا بعض الأرغفة والجبن فى الركن، ونظر رئيس الضباط من فتحة الزنزانة، قائلاً: "غدًا ستحكى عن شركائك يا مجرم".

وضعت رأسى على المخدة، ورأيت فيما يرى النائم أمى تئن من الآلام، اقتربت منها محاولاً تغطيتها عريها بلحافى، قائلاً: "حقك على يا امه"، تجاهلت صوتى، فنظرت بحزن للسماء، قائلاً: " مش هنسى جمايلك أبدًا، ساعدينى ياغالية "، ردت بغضب: "امشى بعيد يا جاحد"، حاول أبى تهدئتها، ولم يفلح فى وقف أنينها، فقالت، بأسى: "محضرتش موتى يا وسخ"، فتحسست جسدها الميت، قائلاً: "سامحينى".

شدنى أخى بعيدًا ، ورفع الحاضرون خشبة الميتين، وساروا بجثتها فى صفين متجهين للمقابر، حينذاك أيقظنى صوت الضابط، وهو يصرخ وسط عساكره ليحضروا جثتى إلى القاعة.

فكوا قيودى، وألقونى داخل قفص حديدى بحجرة مجاورة، ورغم حضورى نادى الحاجب على اسمى عدة مرات، حينذاك طلب منى رئيس المحكمة أن أرد قائلاً: "حاضر، أيوه يا أفندم".

من خلف القضبان شاهدت وجوههم، واندهشت لملامحهم الباسمة، وحين صرخ الضابط فى الحاجب: "انده على الشاهد الأول"، رد "سمير" النادل قائلاً: "أفندم"، فطلب منه الضابط أن يتقدم ويحلف بالله العظيم أن يقول الحق.

تنحنح قائلاً كشيخ مفوه: "نعم كان يأتى للمقهى كل يوم، ويجلس طوال النهار بين الرواد، يسب ويلعن، ويتحدث دون ملل عن أحلامه وذكرياته، وحين يأتى رفيقه ينزويان فى الركن، ويتحدثان بالساعات، يسلمه الأظرف المختومة بالشمع الأخضر، فيخفيها فى جيوبه ويغادر المقهى".

حتى "ريان"، صاحب المحل الذى سرق أتباعه قميصى الأبيض، اتهمنى بأننى اقتحمت مكتبه وسرقت محتوياته، وحاولت قتل أتباعه، وهربت من البوابة الخلفية دون أن يلمحوا طيفى.

سرد "منسي " جارى الأعور حكايات معاشرتى لأخت زوجتى، وزوجتى فى آن واحد، واسترسل فى كشف علاقات ابنتى ونشرها للفجور، وتمكنها من تسليح العشرات، وتجنيدهم بتنظيم المتمردين، روى تفاصيل تشكيل ابنى "رأفت" لعصابة ترويج المخدرات، وبيع السلاح، واتهمه بخلع عينه اليسرى، وهو ينصحه ليبتعد عن أولاد الحرام.

سمعت الضابط الذى استوقفنى بالميدان يقول: "حين سألته عن هويته تردد، وانتهز فرصة العركة التى وقعت بين جماعة الملتحين، وعصابة الأقنعة، وفر هاربًا".

أخرج عدة صور تبين استيقافى، ليدلل على تفانيه فى عمله، قال بثقة جعلت المحكمة تكون عقيدتها: "التقطت الأجهزة التى تملأ العمارات وأعمدة النور صوره، وهو يتجول بالميدان، راصدًا تحركاتنا، ومسجلاً فى دفتر صغير شعارات المتمردين".

فوجئت بوجود "صابحة" امرأة الميدان الفتية تبكى بحرقة، وتقول: "رفض فى البداية إعطائى ثمن الرغيف، وطلب معاشرتى، وأخذنى فى إحدى الخيام التى يعرف صاحبتها واغتصبنى، وجرح كرامتى، وهو يلقى بالفضة على جسدى العارى"، رغم ذلك اقتربت من القفص، وتحسست يدى المقيدة فى الكلابشات قائلة، بشبق: "لم أنس عيونك ورائحة عرقك المذهلة يا لورد".

عند ذلك صرخ الضابط فى الجمهور الذى يملأ القاعة، ليفسحوا المجال لمذيعة الفضائيات، ذات الشعر المستعار، لتقترب بكاميرتها من وجهه لإظهار قسماته الحادة، وهو يلقى بحُكمه.

حينذاك سمعت الهتاف الذى ملأ القاعة مفتخرًا بعدالة القاضى الذى يرتدى ملابس عسكرية، وسمعت صراخهم الذى يردد اسمه: سيسى آه سيسى إيه، سيسى القاضى .. اسم الله عليه".

عند ذلك اقتربت المرأة من قفصى، لتصور وجه الجاسوس الذى خرب البلاد، وأشاع الفوضى والفزع والكره بين أبناء النسيج الواحد.

حين نظرتْ فى عيونى، وشاهدتُ وجهها الضاحك وأسنانها اللامعة، تذكرت النهود العارية لزوجتى، وأرداف أختها الممتلئة.

عند ذلك طلبت من القاضى، المدعو "سيسى"، كوب مياه لأروى عطشى، فصرخ فى الحاجب، ليحضر زجاجة باردة، علامة على رحمته، وسماحة قلبه أمام الجهات التى تتابع بشغف مصير الخونة.

" صابحة "

حين لم يتمكن أبى من شراء الطعام لأمى وأخوتى خرجت للشارع باحثة عن الرغيف، وانطلقت مع رفاقى تحت الكبارى مؤسسين مملكة للحب، وسمحنا بدخولها لمن يستطيع دفع الثمن.

أدت قوتى، وجمال ملامحى إلى التفاف الصبية حولى، واخترت خمسة منهم لأشكل فريقًا هيمن على الشوارع، نقف على النواصى وأمام العمارات، ونصطاد الزبائن ونستولى على أموالهم وموبيلاتهم، مقابل شم رائحة فروجنا.

نسمع بين الحين والآخر عن إجراءات ومساعدات لحمايتنا، فالجميع يشفق علينا، ويمصمص شفتيه ملقيًا اللوم على الظروف التى قادتنا للنوم عرايا فى الخرابات بعيدًا عن عيونهم المتوحشة؛ لكننا لا نهتم بضميرهم المتيقظ أحيانًا، والنائم باقى حياته.

فى بيوت اللقطاء تعلمت فنون الدعارة لأضمن لنفسى رغيفًا ومنامة، لم يكن يهم اسم من يركبنى أو يفجع جسدى، فمشاعرى انمحت وروحى جفت، ولم يكن يهمنى وقتها إلا الاستمرار فى عملى لأتمكن من استئجار حجرة أنام فيها بمفردى.

هل عرف أحدكم الغوط فى النوم دون سقف يحميه؟ هل شعر أحدكم بأيادى الغرباء تعبث فى فرجه أو مؤخرته ليستيقظ من أحلامه على وجوه بشرية تفعص نهوده؟ لا تسألونى إذن عن مصيرى، فالجميع يستمتع بمعاشرتى، ويتمنى فرجى المفتوح.

كان انتشار الفوضى فى الميادين ايذانًا بعصر جديد، اشتركت مع أقرانى فى تجهيز خيمة الميدان، وجلبنا الزبائن الراغبين فى العشق، وتقاسمنا العائد مع المعلمة التى حمت ظهورنا.

ورغم الوجوه الكثيرة التى تفرست جسدى فى الشقق، وتحت الكبارى؛ لكنى لم أحس باختلاف أظافرهم، وكان هناك شىء ما يدفعنى دومًا للتقدم.

عندما جمعت مبلغًا كبيرًا وتمكنت من استئجار حجرة فى الحى القريب أحسست بالفخر ، فأنتم لا تعرفون مدى استمتاعى بالاستحمام، والنوم عارية على سريرى.

أخيرًا أصبح لى مكان أنام فيه وحدى، وغدًا سوف أعيش بقصر، نعم سأحقق أمنيتى عندما يلقى القدر فى طريقى بشخص أعرفه من نظرة عيونه وطريقته فى صرف الأموال، حينذاك سألقى عليه برحيق أنوثتى الطازج، لأخلب عقله وأجعله عبدًا فى مملكتى.

أحس باقتراب هذا اليوم، خاصة بعد علاقاتى القوية بالضباط الذين يستضيفونى فى شققهم طالبين رضائى، حين أفتح أفخاذى يتحولون لفئران تحت أقدامى، يتأملون جسدى العارى ويتحسسون نهودى، كأنهم يخافون من تدنيس روحى.

الجميع يتحول تحت أقدامى لكلب يطلب الشفاعة من عيونى الجامحة، وحين أضع يدى على مؤخرتهم، وأصرخ منتشية يقذفون مفجوعين مياه المحاياه فى فرجى.

أرشدهم عن أماكن المتمردين وهوية رواد الخيام، ويسلمونى الهدايا ويعاملونى كعضو مهم فى مجلسهم، لم يهمنى اختيارى كممثلة عن فتيات الشوارع باجتماعاتهم التى يلكون فيها بالجمل الفخمة، لدرجة أن أحدهم نطق بأسمى كالزعماء باعتبارى مسئولة عن أهم، وأكبر شبكة فى البلاد.

ورغم ذلك لم أهتم بحقد البنات على نضوجى، أعيش بينهم كغريبة، وأعرف مكنون أرواحهم، وأحس بآلامهم وأحلامهم، لكنى لست منهم، فأنا أميرة الشوارع التى سأعيش يومًا ما فى القصر.

عندما أنال مرادى سوف أبحث عن أبى وأمى وإخوتى وأعولهم، لا يهم وقتها ما سأصرفه عليهم لأن القدر يعطينى أحيانًا كثيرة دون حساب.

أظهرت سخريتى وضجرى حين استدعونى فى محاكمة هزيلة لشخص تظهر قسمات وجهه ملامح الهزيمة، قبل شهادتى التى لقنوها لعقلى تطاول، زعيم العصابة الأعور على أنوثتى شاخرًا، وسط الضباط، متهمنى بالمومس، لكن الجميع قذفه بأقذع الشتائم متمنين إرضائى.

لا تسألونى عن براءة المخزنجى الذى شهدت ضده، فحين أغويته ليدخل خيمة الميدان، دفع ماله بإرادته، واستجاب لإغرائى، طبعًا تعرفون مثلى أنه عاجز، فهل يعقل أن يرفض أحد

لمس نهود "صابحة"، والتمتع بفرجها العطشان، أرجوكم حاكموه بقسوة لتجاهله نشوتى، واحتقاره لجسدى البض.

" هروب "

أثناء محاكمتى عرفت من جارى الأعور أن زوجتى وأختها هربتا، ولم يعد لهما أثر، روى حكاية رحيلهما بتشفٍّ، ليجعل الساعات الباقية فى حياتى مرة.

استرسل فى وصف الهجوم على ابنى أمام المنزل وشق بطنه لنصفين، وسعد بوصف عيون الفتيان التى التهمت نهود ابنتى بصدورها العارية، وهى تهرب بحقيبتها المملوءة بالأوراق.

حين حكمت المحكمة بإعدامى رميًا بالرصاص فى جبينى، بصق الجميع فى وجهى، وغادروا القاعة مبتهجين بالعدالة، وسحبنى العسكر، وألقونى فى الزنزانة وحيدا، وتركوا بطانية مكومة بأحد الأركان، ورغيفًا جافًا، وكوبًا من البلاستيك للتبول والتبرز، معتقدين بأننى سأنتحر، وأحرمهم من رؤية مشهد إعدامى الذى ستصوره الفضائيات مفتخرة بالمحاكمة والقصاص من أعدائهم.

أكلت الرغيف ومددت على البطانية، خطفنى النوم سريعًا، وانفتح السقف على مصراعيه أمام روحى، ونزلت من شقوقه فتاتى، وطمأنتنى على ابنتى قائلة: "تعيش فى شقتى وتعمل بورشة العبايات الفاخرة"، وطبطبت على ظهرى، قائلة، بود: "أنت لا زلت حبيبى".

جذبتنى ناحيتها، ودثَّرتنى فى ملابسها، وطارت نحو الميناء، ودخلت إلى أعماق المياه، لتزيل الكره والشر من روحى.

سبحنا عرايا حتى جزيرة بعيدة، مملوءة بأشجار الخوخ والمانجو، فحلقتُ وراء النور المحيط بهالتها سعيدًا بعودتها.

تحولنا بفعل نسمات الود لشعاع متطاير، لعبنا مع خيوط الشمس، واندمجنا فى الفضاء، وحين امتلأت بالنشوة، وهى تضع شفتيها فى فمى، سحبت اللذة من روحها، وهى تغرد سعيدة فى عروقى.

انطلق الرصاص والفزع فى أرجاء السجن، وأيقظنى الصراخ الذى يشق الجدران من حلمى، وشعرت بأننى مفقود وسط بركان الفوضى.

الهتافات خرمت أذنى وهشمت الأبواب، وجعلت العسكر يهربون مختفين فى أزياء المساجين، وحين أطلق الثوار المحابيس من الجحور وجدت نفسى محاطًا بوجوه لا تعرفنى، لكنها تحثنى على الهرب، صرخوا من حولى مرددين كفرقة موسيقية: "انتهى الظلم، ولم يعد فى بلادنا مشانق، أو قضبان".

غيرت ملابسى وسط الرعب، وخرجت للشارع، وحين شاهدت "حمادة" بائع البطاطا يحمل بيديه رشاشًا ويتوسط جمعًا من الصبية، وقفت متأملاً وجهه البشوش، فأخذنى فى أحضانه قائلاً: "سقط النظام، وتحررنا"، أعطى أوامره لإعادتى سالمًا إلى منزلى، ووضع يديه على ظهرى، قائلاً: "أعرف معدنك الطيب".

سلمنى أحدهم رغيفًا مملوءًا بالخضار واللحم، فتذوقته فى حب، وطلبتُ بحياء من الصبى المسلح الذى يقود السيارة، نقلى إلى ميناء المدينة، رغم أنه حذرنى من المخاطر، لكنه استجاب لطلبى، خوفًا من مخالفة الأوامر التى صدرت بتأمينى.

أثناء سيرنا، وجدت بعض الصبية يقيدون، "بلبل"، ويضربونه على رأسه بالشوم، طلبت من السائق التوقف، فنادى على لأمنع قتله، قائلاً: "خطفوا زوجتى الجديدة وحرقوا مخزنى"، نظرت إليه مندهشًا، وهو يصرخ بود لأتصل بابنتى كى تحميه من جنون المتمردين.

سمعت صوته، وأنا استكمل سيرى قائلاً: "متنساش تكلم عزيزة، كلمتها مسموعة فى العهد الجديد يا عديلى".

" **بلبل** "

أتذكر يوم حضور هذا الرجل، إلى منزلى طالبًا يد "أنهار"، ورغم ارتدائه ملابس مبهجة، لكنى لم أرتح لصمته الطويل، وحين ضاحكته، قائلاً: "ألف مبروك"، وجه كلامه لزوجتى، كأننى غير موجود.

بعد زواجه ادعى زورًا بأننى أتلصص على أرداف النساء، ولم يفهم بأن عيونى التى تلاغى أعماقهم تدخل السعادة فى أرواحهم.

لا يعرف بأننى لاطمت الدنيا، وعملت صبيًا فى الورش، وجمعت الأجرة فى الباصات، وحين فهمت مغزى الحياة، عملت سمسارًا، وتوسطت فى شراء السيارات والشقق المفروشة، وحين رزقنى الله بالخير فتحت محلاً صغيرًا لخدمة رجال الأعمال.

حينذاك أوقعت بى "أزهار" فى الشارع، وعشت معها فى شقة أمها، كملك متوج فى قصر مملوء بالنساء.

لا تسألونى عنه لأنه جلياط لا يفهم معنى الرجولة، ترك ابنته وابنه دون وصاية، معتقدًا بأنه يوفر لهم العيش الرغيد، حرم نفسه، بصمته ولا مبالاته، من متع الحياة لينال رضا زوجته التى عاشرت "ضيف" ساعى مصنعه.

لا تصدقوا حديثه المعسول، فأنا أعرفه، لا يرضى أبدًا بالمقسوم، ويتصور نفسه أفضل من الآخرين، نعم نلت أنا الآخر قدرًا من التعليم، لكنى أستمتع بحياتى.

بعد شرائى قطعة أرض زراعية، من "ريان " صاحب المحلات والعمارات وحولتها إلى مخزن لتقطيع السيارات لعبت بالبيضة والحجر، أدخن الحشيش، وأستمتع بالنساء، أتزوجهن عرفيًا وعلى سنة الله ورسوله، لكن الشىء الذى يحز فى نفسي حتى الآن أننى لم أنعم بالذرية الصالحة.

الشىء العجيب أن هذا الرجل الذى رزقه الله بالأولاد لم يعرف طعم السعادة، ظل حائرًا مدهوشًا من حياتنا، وحين اختفى بعد الهوجة التى أكلت الأخضر واليابس بحثت عن زوجتى وأختها لإعادتهما، وعندما عثرت عليهما فى بيوت الدعارة أشفقت عليهما وأعدتهما إلى الحى،

بهذه الليلة حاولت معاشرة زوجتى، لكنها رفضت طالبة الطلاق، كنت أعرف بأن "ضيف" الساعى يعاشرها، ويأمل أن يتزوجها، فرفضت تحقيق أمنيتها.

فأنا الذى أستحق نعيمها، لكن "منسى" الأعور، شيخ الحارة، كرى على البلطجية وخطفوا زوجتى الصغيرة التى وعدتنى بإنجاب الأبناء، وطالبنى بتطليق "أزهار"، وعدم التعرض لحياتها.

عرفت بعد ذلك أن "ضيف" رشى الأعور لينعم وحده بفرج امرأتى، ومداعبة نهود زوجة المفقود.

بعد تسلُم المتمردين دفة الأمور فى البلاد قامت ابنته، وبالاتفاق مع خالتها، بالانتقام منى، فأرسلوا كتيبة من الثوار، وأشعلوا النار فى سيارتى، وأكوام الخردة التى تقدر بالملايين.

ولم يكتفوا بذلك، وذهبوا إلى شقتى واستولوا على ذهب امرأتى، وحرقوا وجهها بماء النار، لكن الأيام سوف تدور، وسيأتى اليوم الذى أتشفى فيه من هذه العائلة القذرة.

لولا ظهور صاحب المحلات الشهير، الشيخ "ريان"، بحياتى لكنت الآن جثة مفتتة على باب المخزن، استعنت به، وأغاثنى وتوطدت علاقاتنا كشركاء.

أيام كثيرة يستدعينى لأحرق السيارات المسروقة، وأبدل أرقام الشاسيهات وأتوسط له فى شراء الأسلحة، وأصبحت بلا فخر رجله المفضل فى الحى، ورغم ذلك فلا زلت أخاف جنونه، فيمكنه قتلى فى أي لحظة، فتاريخ عائلته كاف للتغطية على شروره.

ومع ذلك، فإن إشارته الأخيرة طمأنت روحى، فمنذ أيام طلب منى، التوسط بينه وبين ضباط المحافظة، يعطينى فوائد أموالهم التى يستثمرها لهم، لأضعها فى سرية تامة بالبنوك.

يفتحون حسابات بأسماء مبهمة حتى لا يكشفوا عن حجم ثرواتهم، والشيء الغريب أن ضابطًا، يدعى "سيسى"، استدعانى فى إحدى المرات، وحاول الضغط على لأبرر سبب زيارتى المتكررة للبنك، وحين لم تفلح آلاعيبه، عاملنى كأخ، وطلب زيارته كل فترة كصديق، نعم فى مقابلته القادمة سوف أطلب منه الانتقام من زعيم الأحياء "منسى"، الأعور، و"ضيف" ساعى المصنع، الذى تزوج امرأتى بالقوة.

" ذكرى "

وسط المزارع المنتشرة على جانبى الطريق تاهت روحى، وبين هذه الحقول عشت طفولتى كمالك لهذا الكون، وفى مياه الترع سبحت مع أقرانى بين "الشطوط"، وهربنا للنيل لنداوى جراحنا، وندخن السجائر الملفوفة بورق الكراريس، وشواشى الذرة.

عندما دخلت الجامعة، وقابلت القادة والقواد وانبهرت بالأفكار، وحياة الأجانب الذين ملأوا المدينة، التحقت بجماعة الرواد، وشاهدت عروض المسرح المجدول، وعاشرت الفنانين الذين يئسوا من شكل البشر.

تغيرت حياتى وأصبحت قائد مغوه، لكن عندما شاهدت فتاتى بحضن "سمير" النادل مدعية أنها تقوم بدورها فى حماية ظهورنا، طار عقلى وأصبحت غير قادر على تحمل هوس المدينة.

بعدها رغبت فى ملاقاة الجنون والشياطين والملائكة لمعرفة خبايا الجدار الضخم الذى يقسم روحى بين النور والظلام، والموت والحياة.

داخل أعماقى حنينٌ لدفء ساعة العصارى، والحصاد والزرع، وفى قلبى أملٌ بالعيش وسط بهجة المقاهى، وأنوار المحال، وانطلاق النساء الفاتنات المتطلعات للحب.

أعادتنى الانفجارات التى تتوالى على جانبى الطريق إلى مراقبة الصبى الذى يقود السيارة سعيدًا بسيجارته المشتعلة على الدوام، يتلقى الأوامر بالهاتف، وينظر إلى ملابسى فى بهجة، لكن الأجهزة التى انهارت أمام جحافل الصبية الملثمين والمسلحين، لم تقف مكتوفة الأيدى تتفرج على المشهد، قاومت هى الأخرى سقوطها بكل مكان.

حين أطلق أتباعها، المنتشرون على جانبى الطريق، قذائفهم، وتحولت السيارة التى تحمل أرقام المتمردين إلى قطعة من النار المشتعلة، مات الصبى، ولم يترك إلا تليفونه المحمول الذى عاود الرنات بجوار جثته.

أحسست لحظتها بظهور الطيف الذى يلازم أعماقى، ساعدنى للخروج من الحريق، وطبطب علىَّ محاولاً النجاة بروحى.

لملمت أجزائى المبعثرة، ووقفت على أقدامى، غير عابئ بالسيارة المتفحمة، ودخلت بين الأشجار أتظلل بأوراقها، محتميًا من ضوء الشمس الحارقة التى حولت الدنيا لبقعة من الضوء.

جلست متدفئًا بجذع شجرة عتيقة ملتقطًا ثمرة البرتقال التى وقعت على الأرض وألتهمها فى نهم، وبين اليقظة والحلم، عادت صورة أمى "رحمة" ووجهها الباسم الذى دفأ روحى وأذاب الجسور فى قلبى.

كذبت مشاعرى وتيقنت برؤيتها، إذ كيف نفقد حكايات الأخيار ليتركونا أسرى لحياة جافة خالية من الحب، تمنيت، رغم حلمى، رؤية وجهها ولو مرة واحدة لإعادة قلبى إلى مكانه.

" رحمة "

مهما قيل عنه، فلن تعرفوا مقدار لوعتى على فراقه، حفظت أسراره، وأخفيته بعيونى حتى لا يخطفه الأشرار منى، انزويت كل ليلة فى حجرته، أحكى الحواديت التى تطمئن قلبه وتعيد السلام إلى روحه.

هالته البيضاء التى ظهرت فى ملامحه، جعلته بين يوم وليلة فتى القرية الأمل الذى لا ينام، نصحته بألا يظهر قوته، وأن ينحنى للريح، لكنه تمرد على الجميع وانحاز لجانب الخير الذى غير حياتنا.

لن تصدقونى لأنى أمه، لكن صوته الذى حدث الطيور، وجعل الجواميس والأغنام والطيور تستجيب لشعاع عيونه يؤكد صدق أقوالى.

تنبأ بالغيب وواجه المجهول، وخط لنفسه وسط شوارع القرية مسارات متفردة، لن ينساها أحد، فحينما كان يطل علينا تهب ريح السعادة وتتحول حياتنا إلى نسائم وضحكات ورضا.

أرضعته خمس سنوات من نهدى، وارتوى حبًا من قلبى، وحين فطمته انزوى فى ركن الحجرة، وأحس بالغبن تجاه حلماتى الجافة.

عندما هاجر إلى المدينة ليستكمل تعليمه انطفأت حياتى، وأضحت زيارته القليلة كل أملى، أخاف عليه من الرياح العاتية، فقلبه الرقيق لا يتحمل القسوة.

لا أحد يعرف سر عيونه ، دائمًا يصحو من النوم ليذهب إلى مكان جديد، يستقى منه الخير، ويشع على المحيطين بالأمل.

لم يهمنى ما يقرؤه أو يكتبه، لأن الشعاع المنطلق من روحه كان يكفى لمدنا بالسلام، لم يتوان عن المواجهة، على العكس كان يستعد دائمًا لمصارعة رياح القسوة ليستبدل أعاصيرها برحيق، ونسائم المحبة.

نجح دائمًا فى تحويل شجاراتنا إلى مأدبة للحب، واستعاد حيويتنا وأحلامنا، ورغم خوفى من الفتاه التى أوته بالمدينة، لكننى تمنيت تحقيق أحلامه بضمها إلى حضنه لرى أحزانه وملى أعماقه بالدفء وراحة البال.

فارقنا فى يوم حزين، دون تلمس أطراف يديه أو الشعور بنسيم عيونه، أرجوكم إذا رأيتموه أو سمعتم عنه، بلغوه سلامى.

" أساطير "

بين اليقظة والحلم، فوجئت بأخى "فؤاد" يتوسط جمع كبير يلتف حولى بين أشجار البرتقال، أيقظونى مندهشين ورفعوا جثتى، وطاروا من الحدائق إلى القرية، ليخفونى ٠

عاملونى برفق كطفل، وطبطب الجميع على ظهرى، نظروا فى عيونى بأسى، وقدموا الخير لابنهم العائد ليشفوا جراحه، وأضحت رغباتى كالأوامر، يتسارع الجميع لتلبيتها كأنهم خلقوا لخدمتى.

عدت مرة أخرى وسط حنانهم إلى إنسان يحزن ويفرح، ويحكى دون أحلام، نسيت وجه بائع البطاطا، وتليفون الصبى الميت على الطريق، والحكم الصادر ضدى بالإعدام، وعشت بينهم فترة طويلة كأنى مولود جديد.

فى صباح عادى سمعت من مخبأى أصوات وهتافات، فشعرت بعودتى لأجواء الحى، فتحت الباب لأراقب المشهد، وفوجئت بجمع كبير من الأهالى يجرون ثلاثة صبية ورجلاً عجوزًا إلى الجرن، وشاهدت النساء والرجال يقذفون وجوههم بالدبش، ويضربونهم على أجسادهم بالعصى والسكاكين.

على الجانب الآخر شاهدت انهماك بعض المارة فى مداواة جروح أخى، خرجت من مخبأى لأطمئن على حياته، فأحاطنى بعض الشباب، وسمعت أحدهم يردد: "سرق اللصوص زريبة مواشيكم، وحاول أخوك مقاومتهم، فأطلقوا عليه الرصاص، ليصاب فى فخذه الأيمن، فتكاثرنا عليهم قبل فرارهم وأمسكنا بهم".

اقتربت لأطمئن على جروحه، وتأملت وجه طبيب الصحة، وهو يستخرج الرصاصة من فخذه، ويخيط الجرح ليوقف النزيف، رغم انشغال الأهالى بعقاب اللصوص، لكن أحدهم صرخ فجأة: "سرقوا مواشينا وزرعنا، ولن نتركهم أحرارًا".

سمعت صوت أخى، قائلاً: "سلموهم للسلطات"، انبرى معظم الحاضرين، ساخرين من حكمة لسان المجروح.

عند ذلك انقض بعض الصبية بالسكاكين، والسنج يمزقون أجسادهم، وصعد آخرون على الأشجار، وربطوا الحبال بين فروعها، ودلدلوا منه خيات كالمشانق.

استغاثت دماؤهم النازفة، وعيونهم المبحلقة بالأهالى طالبة العفو والمغفرة، ورغم الضجيج والبكاء الذى ملأ مآقيهم، سمعت نزاعهم الأخير مع الحياة: "ارحمونا".

اندفعت الدموع الغزيرة والأسى من عيون أخى، وبعض العجائز بسبب حال القرية التى لم تعرف جرائم القتل إلا فى الأساطير.

شاهدت بالقرب من جمعنا، طفلة تمسك فى يديها رغيفًا محشوًا بالطعمية، وتلقى بالخبز لبعض القطط والكلاب التى التفت حولها، وهزت ذيولها فى رضا وحب.

عندما انضم إليها بعض الأطفال، وشبَّكوا أياديهم فى أيادى بعضهم، وأحاطوا بالكلاب والقطط فى دائرة كبيرة، وغنوا نشيد الصياد، تراقصت الكلاب والقطط وسط الدائرة فرحة بانطلاق الصفافير من أفواههم الصغيرة.

تجاهل الجمع الأطفال والقطط ، وعادوا مرة أخرى بالسكاكين ليعلقوا اللصوص على الأشجار، عندما نظرت لعيون الصبية مندهشًا من جنونهم رفعو جثث اللصوص، وفجروا كروشهم ببراعة غير عابئين بالدماء التى ملأت ملابسهم وأياديهم.

حينذاك شاهدت أخى يقف على قدميه ويتقرب منى محاولًا إزالة دهشتى.

" فؤاد "

حين مات الأب، ووصانى على أخى الوحيد، كافحت ليستكمل تعليمه، ولم تغفل عيونى كى أنير طريقه، وأحقق طموحه سعيدًا بتلبية رغباته.

تسابقت أنا وأمى لإسعاده، ومده بكل الطاقة التى تجعله يعيش فى سلام، تفوق على أقرانه فى المدارس، وأذهلنا بكونه الأول، ولم يقبل فى حياته بغير هذا الترتيب.

ظل مشهد أبى، وهو يحمله من الجامع إلى المنزل فوق أكتافه ليحميه من وحل المطر الذى يملأ الشوارع واضحًا فى فمه العسلية ليمده بالسعادة باقيًا فى أعماقى، ويدفعنى دائمًا لأتحمل مسئوليتى التى لا تستطيع الجبال حملها.

إنها الأمانة التى رفضتها الملائكة، وفضل إبليس النار الأبدية بديلاً عنها، ورغم ذلك استولى أخى الوحيد دون رغبته على أجمل ما فينا.

حين غاب فى المدينة ليستكمل دراسته، وماتت أمى مملوءة بالحزن لعدم توديعه، أحسست بانهيارى، وللأسف لم يفارقنى هذا الإحساس، منذ رحيلها.

أيامًا كثيرة أجلس وحدى بالغرفة بعيدًا عن زوجتى، وأولادى والأسى يمزق قلبى متسائلاً عن مصير أخى الذى تركته وحيدًا دون الشعور بفراقه.

لكن قلبى كان يعض على كبدى طوال الوقت ويذكرنى بالأمانة التى فرطت فيها لتركه يواجه جحود المدينة بمفرده.

كان صوته المنطلق فى كل إجازة كفيلاً برضائى عن نفسى.

وزع علينا الأوراق، والكتب التى تبشر بعالم جديد، واستقبل لامبالاتنا بتبريرات جميلة، وراهن على الحب الذى سينير حياتنا، ويحولنا إلى عشاق وسط قرى لا تعرف إلا الزرع.

سنوات طويلة يأتى ويعود ويحضر معه أصدقاءه وزملاءه ليجلسوا فوق السطوح، وعلى شطوط الترع، يشوون الذرة ويتناولون طعام زوجتى، وحين ذكر لى حكايته مع فتاة المدينة التى يعشقها، أحسست بالسعادة لقرب النهاية وتخفيف الأعباء عن كاهلى.

بهذه الليلة قال فى أمسياتنا: "سوف أتزوجها يا فؤاد"، وأشترى شقة واسعة بجوار البحر لتكون أميرتها "، حلم بالتعيين أستاذًا بالجامعة، تصور نفسه واقفًا وسط الطلبة يحكى لهم قصة حياة قريتنا، وحين رفضت الجامعة طلبه قلت : "ليست نهاية الدنيا".

لكنى أحس بأن هناك شيئًا آخر غيّر حياته وجعله يقاطع الجميع خلاف رفض تعيينه، شيئًا ما فى روحه جعله يفقد الانسجام وأدى لكسر قلبه.

واضطر فى النهاية إلى ترك القرية لأنه يعلم بأن المنزل والأرض لا تسع وجودنا، وعندما تزوج دون أن يأخذ رأيى، حزنت كثيرًا من قسوة قلبه.

كان يعرف أننى لن أقبل بامرأته التى لا تعرف عاداتنا، ومع ذلك تمادى فى المجهول ليفسح المجال أمامى كى أتبوأ وحدى عرش مملكة الأسرة.

الجنون يفتك بعقلى، كلما تذكرت حاله متسائلاً، بحرقة: "ما هو الشىء الذى تمكن من تمزيق روحه لهذه الدرجة"، المسئولية تسيل من بين يدى والحمل يزيد على أكتافى، وأنا عاجز عن دعمه، أصلى وأدعو كل ليلة ليمكننى الله من استكمال دورى لأوفر لأسرتى الستر والحماية.

حينما أعاده القدر بعد اندلاع الفوضى، أحسست بأن الفرصة حانت للتكفير عن ذنوبى، أخفيته ووفرت له سبل العيش كى لا يغادر مرة أخرى، لكن الأحداث التى جرت كانت كفيلة برحيله من جديد ، كان يعرف أننى أعشقه، ومع ذلك رحل فى اليوم الأخير دون وداعى.

" وداع "

تزايد قلقى بعد معرفتى بصراع جماعات اللحى والمقنعين فى القرى المجاورة، قلت لنفسى: "لن أظل كثيرًا مختفيًا، فبين حين وآخر يمكن أن يأتوا، ويتعرفوا على هويتى، خاصة أن المحاكمة قد تم تصويرها فى الفضائيات، ويمكن إعادتى للسجن، وتنفيذ حكم الإعدام".

ورغم ذلك نمت بعمق وشاهدت فتاتى تجلس سعيدة وسط أطفال وشباب فى الحديقة التى تحيط بالنهر الذى يجاور منازل قريتنا.

لمحت على الضفة الأخرى للنهر، سوقًا للمواشى، يتبادل فيه أهالى القرى كل شىء بوجوه صافية، مملوءة بالتجاعيد، وتكشف خدودهم وجباههم عن صمودهم.

ورأيت من بعيد اللصوص الثلاثة يقفون على مدخل السوق، ويقطعون التذاكر، وينظمون حركة دخول وخروج المواشى، ويختمونها بختم السلطة.

ارتدوا ملابس سوداء بلدية، كعلية القوم، ورأيت زعيمهم يجلس أمام مدخل السوق، يراقب وجوه المارة واضعًا "مبسم" الشيشة فى فمه، ويخرج الدخان من أنفه ببراءة.

نادت فتاتى علىّ لأدخل معهم فى دائرة الحب، ترددت بين الرحيل إلى السوق للاطمئنان على أخى، والدخول فى حلبتها التى تمتلئ بالعشق والحياة.

فجأة وجدت نفسى بزريبة مواشى واسعة، تمتلئ طواليها النظيفة بالعلف، وشاهدت الفلاحات يرتدين الجونلات القصيرة، والبشيرتات المفتوحة التى تظهر نضارة نهودهن، ويعملن بشغف وانطلاق فى خدمة المواشى، تاركين شعورهن الملونة ترفرف وسط النور الذى يأتى من الأسقف المفتوحة للزريبة.

شاهدت أخى يجلس وسط أكوام السباخ التى تملأ الحقول على كرسى هزاز، ويلعب الطاولة مع " حمادة " بياع البطاطا.

أندهشت لوجود أمى معهم وانشغالها بتقديم وجبة إفطارها المبهرة، وأدت رائحة جبنتها وعسلها وفطائرها المعجونة بروعة قلبها التى ترميم جروحى.

فجأة عادت فتاتى من حديقة النهر، وجلست معهم لتتناول الطعام، وقالت بود فى وجهى: "بنتك بخير، متخفش عليها".

فى هذه الليلة صحوت من نومى وارتديت ملابسى، ومررت على أخى، ولم أجده ، وقال ابنائه انه يدفن اللصوص ، احتضنتهم وقلت باكيًا: "حان موعد رحيلى".

لم يجادلونى لأنهم يدركون خطورة اقتراب المقنعين وأصحاب اللحى، ناولتنى زوجته ظرفًا مملوءًا بالنقود، وقالت ببراءة: "إذا فشلت، فلا تنسَ أننا هنا".

" أب "

عشت مع أبنائى الثلاثة كملك، دربتهم فى الصغر على فنون المهنة، أصغرهم وأحبهم إلى قلبى سميته "وجدى"، وتمتعت يديه منذ نعومة أظافره بخفة، ومهارة خلاقة.

كاد الانحراف والسير مع الدراويش ان يعيق طريقه ، لكننى عنفته وأفهمته بأن مهنتنا خلقت للشجعان، وعلمته فتح المطواة وإخفائها فى جسده دون أن يلمحه أحد.

اختار الأوسط مهنة الهجام، فسار على حوائط المناور كالخفاش، يفتح الشبابيك والأبواب بمهارة تفوق خيالى، ويعرف بحدسه هوية السكان ووقت نومهم، يدخل الشقق ويسرق الأجهزة، ويخرج دون سماع النملة دبة قدميه، رغم أننى أسميته "أدهم"، لكن زملاء المهنة أطلقوا عليه "عصفورة".

امتهن ابنى الكبير الفتونة، وسار على دربى، وعرف بخبراته وقت الهجوم، أو الهروب، سميته ضاحى، وكان اسمه على مسمى.

ماتت أمهم منذ طفولتهم، فكنت لهم الأب والأم والأخ، لم يتمكن المخبرون من القبض عليهم أى مرة، ورغم أنهم يحششون معى، لكنهم لم يتعاطوا أبدًا البرشام أو البودرة، وافتخرت وسط أقرانى بأبنائى الأوفياء المخلصين.

عشنا بالحى سنوات طويلة، وعاهدنا أنفسنا على عدم سرقة أى من منازله، كان الجميع بمثابة إخوة لنا، احترمونا ووثقوا فى عهدنا، سعدنا بأفراحهم، وأحزننا فراق أحدهم.

وبعد ظهور الهمج الذين جابوا الحوارى والمدن ليل نهار للسرقة، والقتل دون نظام أو اتفاق، انهارت حياتنا وأصبحنا غرباء لا يحترم وجودنا أحد، فى الماضى كنا نعرف بعضنا البعض، ولم يكن يتعدى أحدنا على مناطق نفوذ الآخرين.

وحين ضاقت الدنيا، وأصبح النشل والبلطجة مهنة العاطلين والجائعين، قررت التخصص فى سرقة المواشى، وسلّحت أبنائى بالطبنجات الخفيفة، وخططت للنزول كل فترة إلى إحدى القرى البعيدة.

ننقب الزرائب، ونحمل البهائم على السيارة التى نسرقها ليلة العملية، ونعود الى المدينة، لنبيعها لمسعد الجزار الذى تعاقدنا معه على شراء بضائعنا بنصف ثمنها، كررنا العملية عشرات المرات، وفى المرة الأخيرة كان هناك شىء إلهى يدفعنى للتردد.

ومع ذلك تجاهلت حدسى، وقررت المغامرة بأبنائى الثلاثة، وحين قاومنا الرجل الذى سرقنا زريبته، أطلقت عيارًا على قدمه، ولم أكن أبغى موته، نحن لسنا قتلة، لكن الفأس وقعت فى الرأس، فهجم علينا الفلاحون كالهمج، وسحبونا كالمواشى، وشجوا بطوننا، لم تردعهم توسلاتى أو بكائى، ولم يغفروا كعادتهم، وتحولوا إلى وحوش، وعلقونا كالذبائح.

لأول مرة أبكى وأنا معلق وسط الفروع والأوراق الخضراء، ليس على أولادى أو حياتى التى كنت أعلم بأنها ستنتهى بهذه الطريقة أو بغيرها، ولكن على حال البلاد الذى أصبح لا يسر عدوًا ولا حبيبًا.

فى لحظتى الأخيرة، وقبل تفتيت الحبل لرقبتى نظرت لوجوههم المغلولة وسعادتهم بشنق بشر مثلهم على الأشجار، وبكيت.

القسم الثالث: دَوَّامة

" **جنة** "

ألقتنى سيارة القرية القديمة على الطريق السريع ، وتركتنى وسط أصوات الضفادع، ترجلت على جانب الترعة، حتى وصلت إلى جسر الغرقانة التى ماتت عليه العجوزة مؤمنة بقدرتها على مواجهة اللصوص وإعادة جاموستها.

توقفت أمامه للحظة، ثم عبرت إلى ضفته الأخرى، سمعت صوتًا مفزعًا يخرج من حقول الذرة، قائلاً: "مين هناك؟" توقفت لأتأكد من صحته، فأعاد الصوت صرخته بقوة قائلاً: "وقف عندك؟"

أحاطنى عدة رجال، وسألونى عن هويتى واتجاهى، وحين لم يعثروا على إجابة، قال أحدهم: "ما نقتله ونخلص"، رن تليفون أحدهم، أشار إليهم بالتروى، وابتعد قليلاً، ثم عاد مسرعًا وأمرهم بتقييد يدى وقدمى، ووضعوا على عينى عصابة، وألقونى بشنطة السيارة وساروا بجثتى إلى مكان مجهول.

طوال الطريق لم يؤنس وحدتى إلا صراصير الليل، كأنهم يرتلون لصلاة الفجر أو يعزفون موسيقى ضياعى، وبين الحين والآخر، كنت أسمع مواء القطط، وعواء الكلاب، وطلقات رصاص وانفجارات مدوية هنا وهناك.

توقفت السيارة، وفكوا قيودى، ونزعوا عن عينى العصابة، وصعدوا بجثتى إلى مبنى فخم، وتركونى فى حجرة مغلقة ورحلوا.

دخل للحجرة عدة أشخاص بوجوه بيضاء وحمراء، وسألونى بلهجات غريبة عن رأيى فى الليل والتعاسة والهجر والكره والعنف، وتحاوروا بغرابة من حولى، وانبرى أحدهم بعد قراءة أعماقى، قائلاً: "انتظرنا حضورك، ونتوقع تعاونك معنا".

قال آخر بثقة: "ستعيش معنا، وتصبح أحد رجالنا، لأننا نعرف قدرة عقلك فى فرز الذبذبات الصحيحة عن الخاطئة، ستدون بأعماقك كل ما تسمعه، وتحفظه فى رقائق أعماقك".

استطرد رجل "عجوز"، قائلاً: "أحرقنا ملفات محاكمتك، ولم يعد لحكم إعدامك أى وجود، حتى الشرائط الفضائية أتلفناها، وحرقنا المدينة، ولم يعد لوجودك أى أثر".

نظرت امرأة تتوسط جمعهم بصمت تجاه روحى، وقالت بحياد: "لا تخف على زوجتك وأختها، رجالنا المنتشرون بالمدينة سيحمون ظهورهما، حتى فتاتك التى خانتك أخفيناها فى مكان بعيد، ولن يعرف أحد بحكايتها".

اندهشت من فراستهم ولإزالة اللبس الذى ملأ أعماقى أمر العجوز بتشغيل أحد الأفلام على الحائط، فشاهدت "ضيف" الساعى يكتب التقارير عن حياتى، ويرسلها إليهم عن طريق البريد، واندهشت لرؤية صورة "سمير" النادل، وهو يجالس العجوز، ويحكى له عن أسرار تنظيمنا، حتى "منسى"، جارى الأعور، جرى على الشاشة حاملاً بعض الأوانى وسلمها للضابط قائلاً: "كان يشرب الماء دفعة وحدة من هذا الكوب".

انبرى العجوز قائلاً: "لا تندهش فالجميع يعمل بأجهزتنا، ويراقب كل صغيرة وكبيرة فى الأحياء والقرى ويبلغها لنا أولا بأول".

ولإزالة دهشتى أمر العجوز بدخول رجل يرتدى ملابس بيضاء ويشع وجهه بالبراءة، وحين اقترب من وجهى قال بهدوء: "أنا قرينك الذى يركن بأعماقك، وأعمل فى خدمة الأجهزة لأمنع عنك الأذى، وأضمن سلامتك".

الغريب أن وجه هذا الرجل يشبه الطيف الذى نجانى من القتل فى منزل "ريان"، وهو الذى سحب يدى إلى الميدان يوم صلب البائع المتجول بجوار مصنعى.

حين حاولت تحسس وجهه اختفى من أمامى، فضحكوا جميعًا وقال العجوز بسخرية: "لا يمكنك أن تلمسه، فقط تشعر بوجوده، وحين تحاول التأكد من هويته يهرب إلى داخلك".

جلسوا معى ليدربونى على دورى الجديد متحكمين فى إشارات عقلى، كأنهم يشاهدون ما يجرى بداخلى من تفاعلات، وأعطونى حقن كبيرة، وذاب سائلها فى روحى، فتحولت لشخص آخر، كأننى مولود وسط مدينة جديدة، لم أتخيلها فى أحلامى.

محت الحقن القرية والمدينة من عقلى، ولم يعد بقلبى أى حقد أو كره، لم يتبقَّ فى روحى الحالمة إلا رؤية الشط.

وضعونى فى اختبارات، وتدريبات مخيفة عدة ليال للاطمئنان على سلامة جوارحى، وفى الليلة الأخيرة أحسست بشعيرات، وخلايا غير مرئية تربطنى بأجهزتهم.

نقلنى أحد أتباعهم إلى شقة صغيرة، وتركنى عند الباب، قائلاً: "كل احتياجاتك بالداخل يا سيدى"، دخلت الشقة مدهوشًا من شبابيكها المطلة على حدائق وشوارع نظيفة، ونظرت لحجرتها المرتبة، وأثاثها الجديد، ودواليبها الممتلئة بالملابس المكوية، وثلاجتها المكتظة بالطعام والخبز والمعلبات، قائلاً لنفسى: "أيجوز أننى أحيا داخل حلم".

أخذت دشا ساخنا، ونمت عاريا، فطارت روحى بعيدًا، وحطَّت فى مكان فسيح يمتلئ بالزهور، كأننى فى مهرجان كبير، يصرخ فيه البشر من كل الألوان والأجناس ويهتفون سعداء بوجودى.

عند ذلك سحبتنى أصابع إحدى البنات الرشيقات إلى منصة عالية، لتسليمى الجائزة، فرأيت الضابط الذى حاكمنى يمسك الميكروفون، ويذيع خبر وصولى، قائلاً فى فخر: "اقترب يا جنرال، لتتسلم وسامك المستحق".

حالت أصوات الجمهور الصارخة من استمتاعى بالموسيقى التى تشدو بألحان أغنية بحر الوئام التى لم أسمع كلماتها فى يقظتى.

احتضنتنى بشرات ناعمة فاحت أجسادهن العارية بالعطور، وأخذتنى أيادٍ لا تعرفنى، وسلمتنى لأيادٍ أخرى لأصعد على مسرحهم الكبير.

طلبوا منى رفع يدى لتحية الجمهور الذى حضر من أرجاء الدنيا، ليستمع برؤية ملامحى، انقطع النور عن المهرجان، وحينذاك سحبت يدى امرأة غريبة، وسارت فى الظلام باتجاه جسر يربط الاستاد بالحى الذى أعيش الآن فى رحابه.

رغم الظلام الدامس المحيط بوجهها، لكننى شعرت بأنها روح زوجتى "أنهار"، عبرت المرأة الجسر، ونزلت إلى الحوارى التى تعرفها حتى صعدت إلى شقتنا، وفتحت الباب فوجدنا أختها "أزهار" عارية فى انتظارنا.

قالت بأسى، بعد أن أضاءت نور الصالة بمواجهتى: "لماذا تركتنا؟"

تجاهلت صوتها، ودخلت المطبخ لتناول جرعة مياه، لكن أختها دخلت ورائى وداعبتنى، قائلة: "زوجى اختفى"، واستكملت، وهى تحتضننى من الخلف، وتقبض بيديها على قضيبى: "يمكنك أن تتزوجنى الآن يا واطى".

أخذونى، وذهبوا إلى قاعة أفراح، يرقص على مسرحها معظم جيرانى، وفجأة صعدت فتاتى إلى المسرح، ودون أن تصرح بشىء، احتضننتى، وقبّلتنى برقة لم أحسها فى حياتى، ومن خلفها رأيت "حمادة"، بائع البطاطا، مع أطفال صغار، يرتلون مع ابنتى أغانى العيد.

كان أملى فى هذا الوقت رؤية وجه أخى، والاطمئنان على صحته، ومعرفة أحداث القرية بعد شنق اللصوص الثلاثة والعجوز الذى كان يقودهم.

شاهدت خلف المسرح تجمعًا لصبية يقودهم ابنى "رأفت"، ويعدون فى الخفاء قنابل المولوتوف ليحرقوا المسرح بمن فيه، وحين ذهبت إليهم وحاولت إثناءهم عن عملهم، نظر فى وجهى بغضب قائلاً: "أخيرًا تذكرت أن لك ابنا".

حين تكرر دق الجرس قمت مفزوعًا، وفتحت الباب مدهوشًا من أثاث الشقة اللامع، وسمعت صوتًا يقول فى وجهى برقة: "صباح الخير يا باشا"، ورغم استغرابى من وجهه الشبيه بابنى إلا أنه استكمل بأدب: "أنا سائقك الخصوصى، واضطررت لإيقاظك، لتلحق بموعد عشائك"، سألته: "أين نحن الآن"، نظر باندهاش ناحيتى قائلاً: "فى منتجع الجنة يا سيدى".

ارتديت ملابسى، ونزلت السلالم وراءه، وفتح السائق الباب الخلفى لأدخل إلى السيارة، وعاد سريعًا لمقوده منطلقًا وسط شوارع مملوءة بالحدائق والزهور.

حين توقف أمام مبنى ضخم تحيطه الأشجار، قال بامتنان: "أخيرًا وصلنا".

" رأفت "

ظل الحاجز الضخم بينى وبين أبى يزداد ويرتفع، منذ داست أقدامى على الأرض، لم أرتح لطريقته واستسلامه، وسئمت حواره، وتحمله كل الإهانات بصمت مزر.

تجاهلت عطفه على أختى "عزيزة" وإعطائها كل الحب، لم أعبأ بظلمه وتركى ذليلاً، ولم أتوسل نظرة عيونه، ولم يحدثنى أبدًا كرجل، حين احتجت لعزوته رفض إرسالى للقرية للتعرف على أخيه وأهله، وخبأ ماضيه وذكرياته فى أعماقه، ورفض الحديث عنهما.

ماذا كان ينتظر، وأنا أشب بين اللصوص وتجار المخدرات؟ كيف تصور نضوجى وسط هؤلاء الغجر لأصبح، بعد ذلك، طبيبًا أو مهندسًا؟

لم يحس يومًا بحزنى أو يناقشنى فى طموحاتى، ترك أمى وأختها تعبثان بحياته دون أن يرف له جفن، واستدعى زملاءه فى العمل لمنزلنا ليخففوا وحدته ويواسوا جروحه.

حين واتتنى الفرصة لأقاتل وسط الحارة من أجل حياتى لم ينصحنى وتركنى وحيد، وقال بهدوء: "اختر طريقك ومصيرك بنفسك"، وظل صمته علامة على ضعفى.

كنت أتمنى أن يطردنى أو يتشاجر معى، لكنه تجاهل استفزازى، وظل محافظًا على رزانته.

عاركت الشباب فى الشوارع، ووثق المخبرون وضباط المباحث فى قوتى وإصرارى، وعينونى كمرشد أتقاضى شهرية جراء إخبارياتى، وسمحوا لى بالاتجار فى المخدرات ليأمن الجميع شرّي.

استأجرت حجرة فوق السطوح، ومارست حياتى كما أحب، عاشرت نساء وفتيات الحى، ولعبت بالجنيه والسلاح فى يدى وجيوبى.

وبعد انتشار الفوضى، وتغير القيادات وشى الضابط الجديد للتجار بأسرارى، فانتظرونى فى ليلة غابرة، وقطعوا لحمى، ورغم ذلك هربت من جبروتهم، وعدت مسلحًا مع أقرانى وانتقمت منهم، لكن الضابط الذى لم تعجبه طريقتى فلفق لى قضية وحاكمنى.

أعرف حقد "منسى" الفاجر، انتظر سنوات لينتقم منى بعد أن خلعت إحدى عيونه، تواعدنى كذئب، واغتال حياتى، قوى علاقاته بالضابط وصبية الأحياء واستطاع أن يتبوأ المنصب الذى حلمت به، وأصبحت كلمته القول الفصل فى أى نزاع.

أخاف على أمى وخالتى بعد اعتقاده بموتى، فيمكنه معاشرتهما فى الشارع لكسر عينى، أريد العودة بفارغ الصبر للحارة للانتقام منه، وإعادة أسرتى إلى الشقة مفتخرًا ببطولاتى.

رغم القضبان، وحرمانى النوم بين نهود فتيات الحى، لكن روح "عزيزة" ترفرف على روحى، أحس بأننى ظلمتها، أسمع عن حياتها بالميدان وسط المتمردين الذين تؤمن بصراخهم العارى.

حين قابلت أحد زملائها فى السجن، وحكى عنها كأميرة أحسست بالفخر، واندهش لتخوفى عليها قائلاً فى غضب: "الدنيا كها تتضافر لتحمى حياتها".

أعرف الآن لماذا كان أبى يخاف عليها ويجافينى، لفظنى وذاب فى عيونها، هل شعر يومًا ببغض، وهو يحتضنها كوليفه؟

طوال هذه الرحلة كنت أتساءل عن معنى الأبوة، أيجوز أن نولد، ونُترك دون لمسة حنان على ظهورنا؟ أيمكن أن نحرم طوال حياتنا من أحضان الأهل أو البكاء على صدورهم؟

أرجوكم إن شاهدتموه، اسألوه عن اسمى أو شكلى أو نبرة صوتى، ادعوه لزيارتى كأب وذكروه بأيامى الأولى، عله يحس بوجيعتى، ابحثوا عنه وأعيدوه إلى شقتنا ليحمى أمى وأختها من عين "منسى" الواطى.

" عشاء "

أدخلنى السائق إلى مكان أشبه بمنزل ريفى، وسحبنى أحد العاملين إلى ترابيزة مصنوعة من أشجار الزان، وبادلنى أصدقاء العجوز التحية، ورحبوا بحضورى، تحسست الأرض المنحوتة فى القطع الصخرية بأقدامى، ونظرت إليهم صامتًا.

العاملات الرشيقات يملأن المكان ، ويرتدين ملابس أشبه بورق البردى، وتتراقص نهودهن ببراعة، ويسرن بين الرواد بجونلتهن القصيرة، وشعورهن الناعمة ووجوههن الباسمة خالقين رغبة الحياة فى الميتين.

تأملت صامتًا اندماج الجمع فى الحوار والتهامهم أطباق الجمبرى والسبيط وموسى والكابوريا المرصوصة على الترابيزات كفواتح للشهية، وحين تجرعوا الخمور الصافية وزجاجات البيرة كأنها مية المحاياه، وتناولوا قطع اللحوم والفراخ المشوية بطريقة ناعمة، تقدمت إلى الأطباق لأتناول أطباقى كالمسعور.

عدت للصمت مع عمق حوارهم حول المرحلة والسلطة والتحالفات والتناقضات وتركيبة أصحاب اللحى والمقنعين، كأنهم يُشرِّحون جثة إنسان حى، ليحددوا دور كل عضو ومكامن ضعفه وقوته.

وحين انتهوا من الأطباق انبرى العجوز، قائلاً: "يجب وضع رجالنا على الأرض، لن تكفى المعلومات واختراقات المواقع والاطلاع على رسائلهم، فيجب ضمان السيطرة وتوجيه تمزقهم".

استكمل آخر مؤكدًا كلامه: "الشرط الوحيد لضمان تنفيذ أوامرنا، واستلاب عقولهم، هو دفعهم الدائم للصراع".

فى هذا الوقت فوجئت بدخول "سيسي " ، الضابط الذى أصدر حكمًا بإعدامى، ومعه المذيعة ذات الشعر المستعار، ودون أن يهتموا بوجودى جلسوا وسطهم، ورحبوا بحضورهم واندمجوا فى الحوار معهم كأنهم إخوة، حينذاك أسرع العاملون بوضع الأطباق المتنوعة من الأسماك واللحوم أمامهم، تناولوها وتجرعوا زجاجات البيرة كأنهم عاشوا حياتهم وسط الخمارات.

اتفقوا جميعًا على ضرورة توعية الشعب، وتدريبه على المقاومة، وتسليحه لينال السلام والقناعة.

بتلك اللحظة وضع شاب أشقر يديه على مؤخرة المذيعة التى تجاهلته واستمرت فى حديثها الفتَّان دون توقف، وحين انسحبت يد الشاب، إلى حلمات نهودها أنهت حديثها، ونظرت إليه بحب، فقال لها كرفيق: "وحشتينى يا ننيس".

نظرت لوجه الضابط الذى حاكمنى، وهو يتجرع زجاجات البيرة والخمر بذهول، ورغم ذلك تجاهلنى، واقترب من وجه فتاة حمراء كأنه يقبلها، ثم طلب منها توصيله إلى الفندق الذى يقيم فيه بالمنتجع.

تلافيت نظراتهم سريعًا خوفًا من اكتشاف وجودى، لكنى ابتسمت قائلاً لنفسى: "تدريبات الأجهزة والحقن التى ذابت فى روحى غيرت ملامحى".

" **سيسى** "

لا يهم أن البدلة التى ألبسها مملوكة للدولة؛ لأننى فى النهاية موظف وأتقاضى مرتبًا كبيرًا جراء عملى، تعطينى الأجهزة شقة كبيرة، وتوفر لى سيارة، وحياة رغيدة ليس تميزًا عن باقى البشر، ولكن لقيامى بواجبى فى حمايتهم من اللصوص.

لا يهم أنى درست القانون فى كلية أو معسكر، المهم أن المخالفين يجب ردعهم حتى يأمن الناس شرهم، إذ كيف يمكن للدنيا أن تستمر إذا تركنا المجرمين يعبثون بحياتنا دون عقاب!

أرجوكم لا أريد سماع تبريرات، فأنا مثلكم متعاطف معهم، ولكن يجب أن يعرف الجميع حدوده كى تستمر عجلة الإنتاج والحياة فى الدوران.

حين وثقت الأجهزة بإخلاصى عينونى قاضيا للبلاد، أنعموا على بلقب المشير ووشحوا بدلتى بتوب العدل، إذ لا يهم كونى ضابطًا أو أننى غير كفء، فوحدة هدفنا وسموه تحتاج تبوء مناصب عديدة، بصرف النظر عن جهلنا، فأى شىء يهون أمام مصلحة الوطن، وحماية مؤسساته من عبث الدجالين.

عندما تحكمت، وعلا شأنى، وفرت لأسرتى نعم الحياة، وساعدت أهلى، وعينت أبناء أقاربى وأصدقائى فى الحكومة، ومع ذلك كانوا ينظرون إلى جبينى برياء وحقد، حتى زوجتى التى أعطيتها مرتبى كاملاً لم تعطف على بكلمة طيبة.

كنت مضطرًا لإقامة علاقات مع مومسات كى أتمكن من تأدية واجبى المقدس، وأعمل بجد ودأب فى حماية العدالة كى ينعم الجميع فى نومهم آمنين، نعم أصدرت أحكامًا بالسجن والإعدام لردع الخونة، ومع ذلك ظللت أعانى من الهجر والوحدة.

الشىء الذى جعلنى أستمر حتى الآن بنفس انطلاقى هو سفرياتى الكثيرة إلى خارج البلاد، هناك أنعم بحياة أخرى ليس فيها تشفٍ أو قتل، حسدت الأجانب على الخير والحب الذى يعشش فى سماء مدنهم.

وحين هبت الهوجة، ومال الحال، وقتل بعض زملائى الضباط والقضاة لم أغادر مكتبى، وأعدت الاستقرار مع كبار مرشدينا فى الأجهزة.

لم أهب العامة لأننى أعرف جبنهم وخوفهم، نعم أمرت بسحل المعتصمين، وقتل أتباع المعارضين من الجهلاء المنساقين كالعميان وراء شعارات جوفاء، فكيف لبشر تربوا على الذل أن يحسوا بالحرية؟

اضطررنا أن نفاوض الجميع، وجلسنا على مائدة واحدة مع الغوازى والقوادين الذين سيطروا على مداخل ومخارج الأحياء، ثقبوا ثغرة وأنفاقًا فى حدودنا، وهربوا الأسلحة لتصبح كالألعاب فى يد صبية الشوارع.

نعم يمكننا سحق الأحياء بالطائرات والدبابات والقضاء على مناطق كاملة، لكن من سيعمل بمصانعنا ومزارعنا، لذلك يجب التعامل بحذر وحرص لنمكن القوادين والساسة من إدارة الدفة، ونعود مرة أخرى إلى معسكراتنا بأقل الخسائر.

فى غفلة من الزمن توطدت علاقاتى بالمذيعة التى تنشر أخبار الأجهزة، تقوم بتنفيذ مخططنا بأمانة يندى لها الجبين، لدرجة أن رئيس المخابرات أنعم عليها بلقب لواء نتيجة خدماتها التى لا تقدر بثمن، ما يربطنى بنبيس هو العمل والخوف على مستقبل أبنائنا ، لم أنظر إليها أبداً كامرأة، ومع ذلك استغرب ميوعتها وتحسسها أطرافى برقة لم أتعود عليها.

لم أصدق نفسى حين جاءت بحجرتى فى الفندق شبه عارية، وقالت بخلاعة فى وجهى: "سأنام بحجرتك يا جنرال لأننى خائفة "، واستكملت، وهى تدخل بحضنى قائلة: "أرجوك يا سيسى دفئ قلبى المرتعش".

ما يحزننى فى طاولة الاجتماعات التى ينوى الأجانب تنظيمها للم الشمل والتصالح هو استدعاء داعرة تدعى "صابحة "، تملك مفاتيح المدينة وأسرارها، تمكنت فى خلال أعوام بسيطة من تكوين امبراطورية مخيفة، ويمكنها، فى لحظة، الكشف عن أموال المليونيرات الذين تمدهم بالبنات البكارى، وتحول حياتنا إلى جحيم.

يجب تحاشى لسانها السليط، والحذر عند توجيه أسئلتى إليها، فالمؤمن لا يسلم أبدًا من غانجة، لم تر فى حياتها إلا أعضاء الرجال الشرقانين.

" دمل "

عندما مر الضابط الذي حاكمني من خلفى ووجدته منتصبًا عن آخره، نظرت فى عيونه الناعسة وابتسمت، حينذاك بحلق المجتمعون فى قضيبه، وتمنوا للفتاة ليلة سعيدة.

اقترب العجوز منى، قائلاً: "يجب أن تلتقط جوارحك كل همسة أو نظرة، أرجوك لا تنسَ نبرة أصواتنا"، ثم سألنى ببلاهة: "هل تعرف المذيعة أو الضابط؟"

حينذاك أحسست بأنه يهددنى، فغبت عن الوعى ناسيًا ذكرياتى، وخيم الصمت على قلبى، نتيجة مفعول الحقنة التى سرى سائلها فى جسدى كالسحر، فاستطرد قائلاً: "لا تخف منا نحن نريد انطباعك، لا نريدك أن تكتفى بالوقائع أو بما تسمعه، نريد تحليلك لرائحة الطعام ونوع ملابسنا، سجِّل كل شىء يدور بداخلك، نحتاج لرؤيتك فى الطقس، وديكور المطعم وملامح العاملين والرواد".

"أرسل لأحاسيسك آلام الماضى وقوة المستقبل، وخوفك على أولادك، وحاضر الحى، وطعم ثمار البطاطا، كل شىء، كل شىء، لا تترك صوت العصافير التى غردت على الأشجار إلا وذكرت كيف سمعته، ومتى، ولماذا؟"

احتضننى قائلاً: "أنتظر نهاية الرحلة تقريرك".

ترجلت وحيدًا وسط الزهور التى تملأ المكان، وتأملت وجوه العاملات التى وقفن فى صفين لتوديعى، وسلمننى للسائق الذى فتح باب السيارة الخلفى، وانطلق عائدًا لمنامتى.

دخلت الشقة غير واعٍ بما يجرى حولى، وسألت نفسى ببلاهة: "أين ذاكرتى، أهو مفعول الخمر والطعام، أم سائل الحقنة السحرى؟" دخلت سريرى غير عابئ بالماضى والمستقبل، أو الريف والمدينة، ونمت بعمق كالميت.

طارت روحى بعيدًا، فشاهدت نفسى أجلس مع أخى على محطة باص، وسط ميدان واسع، مملوء بآلاف البشر الذين يهتفون بسقوط العرش.

حين نظرت إلى وجوههم، أمسك شيخ ملتح متجهم الوجه رقبتى، محاولاً تقييد يدى وقطع لسانى، قاومت وصرخت مع الناس بسقوط الأقنعة.

هرب أخى من جوارى، ووقف أمام يافطة مقهى بعيدة، ونادى بأعلى صوته باسمى كى أعود، اقتربت منه ونزلنا درجات سلالم كثيرة تحت الأرض باحثين عن المقهى الغارق فى الظلام.

عندما أحس بالأمان سألنى: "لماذا كشفت عن هويتنا؟"

نظرت فى عيونه صامتًا فحاسب النادل، وصعدنا مرة أخرى إلى الشوارع، وسرنا وحيدين فى شوارع خالية من البشر والسيارات، ودخلنا إلى حديقة واسعة تعبث الثعابين بين أشجارها، وحين هربنا من عيونهم، وصعدنا أعلى الجبل، تعثر أخى، ولم يتمكن من الوصول مثلى إلى القمة.

جلست مندهشًا من حوارى الحى المكتظة، ووجوه جيرانى الذين ملأوا بيوت الدعارة، انتقلوا فى خفة لاجتماع مجلس إدارة الحارة، وحسموا أمرهم بالرصاص.

جرت زوجتى وأختها هاربتين من عيونهم، ولاحقهما "ضيف" الساعى وزملائى فى المصنع، لكنهم انشغلوا عنهما فجأة بتلبية طلبات الزبائن.

فوجئت بالعجوز الذى كان يسهر معى ليلة الأمس يمشى بعظمة حول الربوة التى أقف أعلاها، وقام ببراءة بفتح الباب الخلفى للحديقة، لتخرج الأسود والنمور والفهود، باحثة عن جثة أخى.

شاهدت ابنتى وفتاتى يسيران وسط الوحوش ويسألان عن مكانى، فنزلت مسرعًا من القمة غير عابئ بالشر المحيط بالمكان، وقبل أن ألمس أياديهما فوجئت بصوت أمى يقترب من روحى، قائلة بعتاب: "لماذا غادرت؟"

أعادنى صوت الجرس الناعم من الحديقة، وأنزلنى من فوق الربوة العالية إلى منتجع الجنة مرة أخرى، فتقلبت يقظًا فى سريرى، وقمت مُسرعًا لفتح باب الشقة.

تنحنح السائق فى حياء، وطلب منى الاستعداد لزيارة "جنة الأحلام"، سلمنى ملفًا ضخمًا قال: "نسيته ليلة الأمس فى السيارة"، فتحت الأوراق، وعرفت من البرنامج أننى يجب علىّ حضور "اجتماع الوفاق".

ارتديت ملابسى، وركبت السيارة التى انطلقت فى اتجاه الفندق، وعندما وصلنا إلى ردهته الواسعة شاهدت المياه المحيطة بأسواره من كل جانب، سجلوا أسمائنا فى الدفاتر، وأدخلونا إلى الغرف المطلة على حدائق مملوءة بالفواكه، ودخلت ورائى فتاة شقراء، ادعت أنها مسئولة عن تأهيلى.

سحبتنى إلى الحمام، وأخلعتنى ملابسى، مبتسمة فى حياء، وقائلة بانطلاق: "تحتاج للسونا المسحورة، لإزالة القشور عن عقلك".

أنزلتنى بحرص لحوض مملوء بالمياه الساخنة المتدفقة، وأمسكت بيديها ليفة بيضاء كالحجر، وبللتها بسائل أخضر شفاف، ودعكت ظهرى ، وبين أفخاذى، وأسفل بطنى، وأعلى وجهى برقة متناهية.

حين لامست أطراف أصابعها قضيبى دون قصد وانتصبت عن آخرى أشارت بيديها ناحية السقف، فدخلت فتاة أخرى تغطى نهودها بشال حرير أصفر، وتضع على رأسها قمطة حمراء، لاعبت لسانها وجسدها بطريقة أربكتنى وسحبتنى من الحمام إلى السرير وأغلقت علينا الفتاة المسئولة عن تأهيلى الباب، وخرجت فى حياء.

تحسست بتلقائية شعر الفتاة من خلف قمطتها، فأحسست بنعومته المذهلة، حينذاك اقتربت من وجهى مفتوحة العينين وامتطتنى كحصان وجمل وكلب وثور، وجربت كل الأوضاع، حتى ارتخيت تمامًا.

لم أدرِ بحالى، وهى تقلب جثتى شمالاً ويمينًا، وحينما أدت الرغبة والنشوة اللتين أفجعت بهما جسدى إلى صمتى وسمعت صوت تأوهاتها الناعمة أحسست بأننى أعيش فعلا بالجنة.

فى تلك اللحظة أشارت بيديها إلى السقف، فدخلت فتاتى مبتسمة وسحبتنى مرة أخرى إلى الحوض، وقامت بدعك جسدى بالليفة السحرية والسائل الشفاف.

محو ذاكرتى، ولم يعد بها شىء، فى هذا الوقت قالت الفتاة بثقة: "الآن يمكنك حضور الجلسات".

ساعدتنى فى ارتداء بدلة سمراء ناعمة، وخرجنا لطاولة الاجتماعات التى تم رص الجميع عليها ببراعة، كل شخص تجاوره فتاة، تداعبه وتشير إليه بالكلام أو الصمت.

تحدث العجوز بهدوء، قائلاً: "يمكننا البدء الان"، حكى بثقة عن دوره فى محو الغل واليأس والتعاسة والحقد والكره والشر من القلوب، ثم سلم الميكروفون لرجل "أحمر" مبتسم الوجه ليتحدث عن ثقافتهم التى تدعو إلى القناعة والحب والزهد والخير والأمل والسعادة.

أخرج الرجل من يديه كالساحر تمثالاً لامرأة عارية تعانق كلبًا، وأشار إليهما كرمز للصداقة التى تربط شعوبنا بشعوبهم، وانبرى مؤكدًا دور المجتمعين فى تسلم الراية، وإدارة دفة بلادهم، لينعم أهلها فى الرفاهية.

اختتم كلمته طالبًا من المجتمعين التحدث بحرية عن أحلامهم وتاريخهم، وصمت الجميع لدقائق، ثم تبادلوا اللعنات والسباب بصوت جماعى، كاشفين أسنانهم وصراعهم على الأحياء والأرض.

وقتها صرخ العجوز مضطرًا لإنهاء الاجتماع وإعادتنا مرة أخرى لاستكمال تأهيلنا.

عند ذلك سحبت الفتيات أيادى الفرقاء، بينما وضع أحد الفتيان يديه على مؤخرة المذيعة، داعرة الميدان، وعدنا جميعًا بهدوء للمكان المسحور.

" عجوز "

نعرف تاريخ هذه البلاد وطبيعة حياة مواطنيها، نهذب جشع قادتهم وغلهم ونعلمهم المفاوضة والإتيكيت، ولولا تدخلنا الدائم فى صراعاتهم، لعمت الفوضى، وقاتلوا بعضهم كحيوانات.

أدى طمع وجهل قادتهم لازدياد نفوذنا، وسيطرتنا على مقاليد الأمور، أدرنا بكفاءة خلافاتهم؛ لنخرجهم من مرحلة التوحش، ونضعهم على أول طريقنا.

نحصل على جزء من ثرواتهم، نتيجة جهودنا فى دعمهم؛ لكنهم يكرهوننا وينكرون جميلنا، ولأننا شركاء فى هذا العالم نتجاهل خداعهم لأنفسهم، ونخطط لمستقبلهم، ونختار أفضلهم لينفذوا رغباتنا وينالوا حريتهم.

حين التحقت بالعمل كمساعد باحث فى الجهاز الذى يحكم العالم، أحسست بوضع قدمى فى المكان الصحيح، استوعبت التجارب والدروس بسرعة فائقة، وحين تأكد رؤسائى بأننى سأخط بجهودى تاريخ هذه المنطقة، تركونى لأدير دفة الأمور لصالحهم.

أحببت حياة ناس هذه البلاد وطريقة عيشهم الراضى، ومع ذلك اندهشت لعجزهم، نعم هم بشر ناقصون، وهناك شيء غامض يجعلهم دائمًا يحتاجون لريادتنا، إذ لا يمكنهم أن يسيروا وحدهم؛ فيجب دائمًا أن نذكرهم بأهدافهم، لكننا نعاملهم كأخ أكبر، حتى يسمعوا نصائحنا ويثقوا فى خبرتنا وعلمنا.

ولولا خططنا، ومتابعة أوضاعهم لتفجر الصراع بينهم، وكانت بلادهم الآن ذكرى لعصور انمحت من التاريخ، فى يوم ما ستزول الحواجز ويعرفون فضلنا، وقتها سيتفهمون قيمة مقتل وتشريد الآلاف منهم.

قبل تعيينى رئيسًا للمنطقة خدمت فى مناطق كثيرة، ورسمت خططا، وفجرت بلادًا وقرى ليصحوا أهلها من غفلتهم ويلحقوا بقطار تقدمنا.

ورغم ذلك أسست فى بلادى أسرة، وأصبح ابنى الوحيد ضابطًا كبيرًا فى الجهاز، وبعد وفاة زوجتى قررت استكمال حياتى وسط هؤلاء المحتاجين، يثقون بقدرتى فى إدارة حياتهم، ويعرفون بإشارة منى طريقهم الجديد لنيل السلام.

بالطبع يجب أن يدفعوا الثمن، لأن التجارب علمتنا أن ما نحصل عليه بشكل مجانى يضيع بسهولة؛ لذلك خططنا للاستيلاء على مقدراتهم، حتى ينجحوا يومًا ما فى منعنا من نزح كنوزهم.

حينذاك سيتحولون لبشر ويثقون بقدراتهم، ويومها سنعلن عن نجاح أهدافنا، ووقتها سوف أعتزل العمل وأعيش الباقى من عمرى فى المنتجع الذى اشتريته خصيصًا لأستمتع فيه بعد تقاعدى.

لا يدهشنى الضابط المتصابى، ولا المذيعة المراهقة، فتجارب حياتهم مليئة بالمرارة، فهو متزوج من امرأة تؤمن بأن معاشرتها لزوجها عارية تعتبر من المحرمات، بينما تجربة المذيعة الجافة جعلت مشاعرها متدفقة لممارسة الرذيلة مع أى رجل يقابلها.

أعرف تاريخهم وأدير مواقفهم وحياتهم، ويكفينى التهديد الناعم بفضح أسرارهم كى ينصاعوا لأوامرى دون امتعاض.

للأمانة هناك شيء آخر يجعلنى حريصًا على التنسيق معهم.

شيء خلاف إخلاصهم لنا، شيء أراه وأحسه بمشاعرهم أشبه بالإيمان ببصيرتنا، إذ كيف يمكن طرد مريدينك والراغبين فى عشقك من جناتك.

نعم يمكننا التضحية بهم فى أى وقت واستبدالهم بآخرين أكفأ منهم، ليساعدونا فى إدارة بلادهم، لكن الملتحين والمقنعين لم يتأهلوا بعد ليكونوا أوصياء ووكلاء ناضجين لشراكتنا.

نبذل مجهودًا ضخمًا لإجراء مصالحات من شأنها تقليل الفوارق بين مصالحهم وعقيدتهم، لكن الجميع يشترك فى شيء واحد يجعلنا نستمر فى عملنا، وهو "الإيمان بقدراتنا" إذ تركناهم عادوا للاقتتال والعنف، وكأن جلب الأمان إلى هذه البلاد قدر ومكتوب علينا.

يعمل طاقمى متجردًا من مشاعره ويخلص لتعليمى، باستثناء الفتاة التى ضمتها الأجهزة للعمل معنا كمتدربة بالفريق، أخاف منها وأحس بأنها تعمل لحساب فريق الأجهزة المحافظ والمخالف لآرائى فى إدارة المنطقة، يقومون بنفس آلاعيبى، ويعينون أقاربهم وأتباعهم بشعبتى ليبثوا تعليماتهم الناعمة، وينفذون ما يخططون له دون معارضتى.

تنظر هذه الفتاة لأدائى بريبة وتربكنى أحيانًا، وأحس بها تنتقد طريقتى، كأنها تعلمنى بطريقتها الخلاقة كيفية السيطرة على عقول القادة، سأكون سعيدًا لو شاركتنى رحلة تقاعدى، فعقلها ملىء بالخبايا، ويمكن أن يكون مرسى حياتى الأخير.

" وثيقة "

أعادونا داخل حجرات زجاجية معلق على حوائطها لوحات لحيوانات مفترسة، عاود الجميع الصراخ، وتبادلوا السباب وفضحوا أنفسهم كأولاد الشوارع، وحين أمسك الضابط الذي حاكمني برقبة جارى بحذر، متهمًا إياه بتكوين العصابات التى نشرت الفوضى، وأسقطت هيبة السلطان، زأر جارى وصرخ بوجهه، قائلاً: "سرقتم الثروات، ورفضتم المحاسبة، وتحالفتم مع الشيطان، وادَّعيتم الشرف كذبًا يا خائن".

قام "عصام"، مدير المصنع، بالقبض على رأس "ريان" صاحب المحل الملتحى الذى سرق أتباعه قميصى وصرخ، قائلاً: "أهدرت فرصة تطوير الصناعة وفتحت أسواقنا لبضائع مضروبة، وروجت عن طريق الجائلين البضائع الأجنبية، ونشرت الفوضى على الأرصفة، وأغلقت المصانع؛ لتنهب وحدك الثمن".

أخرج صاحب المحل موس حلاقة من تحت لسانه، وشرط وجه المدير منددًا بطريقته البدائية فى الإنتاج، وظلمه لعماله، واصطناعه الأوراق والفواتير والعقود الوهمية، كى يتهرب من الضرائب.

شخر وسب الدين قائلاً: "هل كان يجب الوقوف مكتوف الأيدى أمام نفوذك وعلاقاتك الوطيدة بالسلطات، وسط عالم لا يرحم يا لص؟"

تدخلت المذيعة فى صف المدير، قائلة لـ "ريان": "نعم فتحتم أسواقنا، فبارت بضاعتنا وزراعتنا، وبدلاً من زراعة القمح، جرى الفلاحون وراء الأسواق والتصدير، بوهم الميزة والمكسب السريع".

وعندما ناولها صاحب المحل بكف يديه، لم تصمت، وبكت بحرقة مستكملة: "نعم أسست شركات للتجارة والمقاولات، وبعت الأرض التى كانت تنتج ذهبًا، وبنيت فوقها الأبراج لتفتح أسواقنا لبضاعتك، وتكتنز الأموال وحدك يا قواد".

وسط الهرج، عرت "صابحة" داعرة الميدان جسدها قائلة: "لم ترحموا أنوثتنا، وتركتمونا بالشوارع نهيم على وجوهنا لنسد رمق جوعنا، حرمتمونا النوم وتاجرتم فى أجسادنا، وأخذتم

العمولات من بيوت الدعارة ؛ ليزيد الحمل على فتياتنا ونسائنا، خسرتم وقودنا وقوتنا التى كانت تساعد الرجال فى المزيد من العمل".

ازداد السباب والصراخ، وقطَّعوا أجسادهم بأظافرهم، وبصقوا على وجوه بعضهم، واتهموا جميعًا " سيسي " الضابط الذى حاكمنى، بتهريب السلاح ونزح الثروات، وتسلمه وَحْده ثمن الخيانة.

رد الضابط، وهو ملقًى تحت أقدامهم، "الجميع خان الوطن، لا يوجد شريف بيننا".

مرت ساعات طويلة، وهم يمزقون ملابس بعضهم، وحين كرر الضابط كلمتى "الشرف والخيانة"، نظروا فى وجوه بعضهم، فعلموا أنه لا بديل عن الصلح والتفاوض.

حينذاك استبدل المنظمون اللوحات السوداء التى تملأ الجدران بلوحات أخرى تمتلئ بالزهور الحمراء والطيور البنية والمياه الزرقاء الصافية.

تجاهلت الفتيات الشقراوات كل هذه الألوان المشعة ودخلن كفراشات عليهن ومسحن الدم عن أجسادهم، وسحبت أيادى الفتيان المذيعة وداعرة الميدان، واتجهوا مرة أخرى لحجراتهم للاستجمام، وارتداء ملابس تليق بحضورهم اجتماع التعايش.

سحبتنى فتاتى قائلة: "لم يأتِ دورك بعد، ومع ذلك سوف أعيد تأهيلك، حتى لا تتأثر روحك بصراعاتهم"، أخذتنى من يدى، وأعادتنى للحمام، وأمسكت الليفة، وبدأت فى دعك جسدى بالسائل الشفاف، فنسيت كل ما جرى، بتلك اللحظة شاهدت عيون "صابحة" الفاجرة تنظر ناحية قضيبى بشبق، تجاهلتها ونظرت لعيون الفتاة المسئولة عن تأهيلى خوفًا من الفضيحة.

أعادونا مرة أخرى لطاولة الاجتماعات، وغيروا ألوان اللوحات ومكان الكراسى، وقدموا عصائر ومقبلات، جعلتنا نستعيد حيويتنا، وأدخلت بأرواحنا السعادة، وأصبحنا مؤهلين للوفاق والرضا بالمقسوم.

وضعت الفتاة التى تجاور صاحب المحل الميكروفون أمامه، وأشارت إليه بالبدء، وعندما وقف الرجل استعدادًا للحديث، طلب منه العجوز الجلوس على كرسيه الهزاز.

تحسست الفتاة قضيبه، وسوّت بدلته، فانبرى قائلا: "لا يمكن نسيان أيام شهر رمضان، واللحظات الباهرة التى جمعتنى مع أخواتى وأمى ساعة أذان المغرب، ونحن نشرب التمر والمياه المثلجة، ونجلس حول الطبلية نلتهم ما لذَّ وطاب من الطعام".

"حُفر الشوارع التى عرفتنا تأتينى بأحلامى، فوانيس الشمع تلف وتدور كل ليلة على المصاطب، لنحكى حولها الحواديت، ونلعب الكرة حتى الفجر، ثم نذهب للجامع لنجود القرآن، ونصلى التراويح جماعة".

بكى فجأة، قائلاً: "حين هجمت علينا المدينة، بعنا الأرض المزروعة بالخضر، وفتحنا مصنعًا للملابس، جمعت أخواتى وأبنائى وقررنا العيش كأسرة متدينة، تزوجت بأربعة تطبيقًا لشرع الله وسنة رسوله، وأنجبت عشرين رجلاً وخمس سيدات، وزرعت أرضًا جديدة وربى أهلى وعشيرتى المواشى لننتج أجود الألبان".

"أظهرنا قوتنا فى الشوارع، وتمكنا من المكسب السريع، ونجحنا دون رغبة أهل الحى الذين يعرفون أصولنا، فامتلأت قلوبهم بالحقد، وكوّنوا عصابات ليستولوا على محالنا، فاضطررنا إلى تسليح شبابنا لحماية أعراضنا".

صفق الجميع لصدق الرجل، وأشارت فتاته عليه ليرد التحية، فوقف حانيًا رأسه شاكرًا تعاطفهم، احتضنته وقبلته قبلة طويلة، فجلس خجولاً ووجهه يمتلئ بالسعادة، ورغم ذلك طلب رئيس الجلسة، من مدير المصنع أن يستكمل حديثه.

انبرى الرجل ساردًا مشاكل العمال والزبائن، وجهوده فى تكوين مؤسسة بالاتفاق مع شركائه الذين وثقوا بقدرته، وتركوا له الإدارة منفردًا، ليتمكن من الصمود أمام هوجة الأسواق.

أنهى كلامه قائلاً: "أفنيت حياتى فى العمل، وتسجيل تقلبات البيع والشراء، لكن المتجولين الذين استولوا على الرصيف ورصوا بضائعهم أمام المحال، هاجموا الحى فى يوم غير معلوم، واستولوا على كل شىء، وَلِمحْوا جريمتهم قاموا بحرق الدفاتر".

سمعنا جميعًا صوت بكائه وأنينه، وتحسست الفتاة التى تجاوره وجهه، ومسحت دموعه، فصفق الحاضرون، وأطلق بعضهم الصفافير دلالة على التضامن مع مصيبته.

كدت أسأله عن الإجازات التى حرمنى منها، ومصير معاشى، وتأمينى واستقطاعات المرتب التى تفنن فى إيجاد مصدر قانونى لها، لكننى أعرف أن ذاكرته فقدت شكلى بعد ترميم وجهى بطلاء وبودرة أعجزونى عن تبيان ملامحى الجديدة.

سحبت فتاتى يدى برقة، لأتحسس دفء فخذيها، فانشغلت عن الحضور بملامسة حلمتى صدرها البارزتين، ولم أهتم بصوت الضابط الذى قطع الصمت، قائلاً: "بذلنا مجهودًا ضخمًا مع المقنعين وأصحاب اللحى ليوقفوا صراعاتهم، لكن طمعهم أدى لانتشار الفوضى والقتل".

"نشرنا وثيقة الشرف، ليعلم الجميع بوقوفنا على مسافة واحدة من الانفجار، وانسحبنا من أرض المعركة ليتقاتلوا ويسيطر فريق منهم على الحارات والأحياء التى قويت عصابتها وتمكنت من نهب الغلال".

"اضطر الناس فى الضواحى لتكوين فرق مماثلة، ونسقوا مع العصابات ليوجهوا جيوش البلطجية الذين أدوا دورهم فى قتل الملايين".

"لكن المشكلة الحقيقية ظهرت بعد تراكم الجثث التى لم تكفها المدافن، فاضطررنا لحفر آبار واسعة وإلقاء الرمم فى قلبها، حرصًا على هواء مدينتنا نظيفًا".

"لولا تنسيقنا مع ممثليكم لهاجمنا العصابات، ونسفنا مناطقهم بالدبابات، لكن نصائحكم بالصبر أدت لكظم غيظنا، ورغم ذلك أطلق رواد الميدان الذين يتزعمهم شاب يبيع البطاطا، بسوق العصر على خطتنا: "تواطؤ وخيانة"، والمصيبة أنهم هتفوا ضدى فى الشوارع قائلين: "سيسى مين سيسى ايه .. أوسخ منه ودوسنا عليه"، ودون أن يهمس أحد بالقاعة، انبرت "ننيس"، غير معنية بعيون الفتى الأشقر الذى يتحسس نهديها، قائلة بعد أن سوّت شعرها المستعار كأميرة: "لولا حكمتك وصبرك أيها الجنرال، لكانت بلادنا الآن ذكرى فى التاريخ".

انبرى الجميع فى التصفيق، وطلب رئيس الجلسة منها أن تستمر، فاستكملت، وهى تفتح فخذيها، وتظهر لون كلوتها الأسود الشبيكة من تحت الطاولة: "طلبت الأجهزة دعمنا وتسجيل كل ما يجرى لمقاومة الفوضى، فسجلنا ملايين الحوارات مع الزعماء باعتبارهم ضمير الأمة وقلبها النابض، وأضحت رسالتنا فى نبذ الفرقة وتحقيق الانسجام أغنية ترددها الجماهير، ومع

ذلك أدى طمعهم لشق الصف، وزيادة الفرقة، وتحول الجميع فى البلد الواحد إلى خصوم لبعضهم".

"لم يكن يهمنا إلا إعادة النظام، انتقدنا الجميع، وحاولنا أن نقف على مسافة متساوية من عيونهم الغاشمة، رغم ذلك اتُهمنا بالانحياز، وتطاول علينا أبو فصادة وأم قويق، سبونا، وقالوا كلامًا يعجز لسانى عن نطقه".

"لكن الحكمة التى مدتنا بها الأجهزة، حمت ظهورنا، وحين قام أنصار عصابات الأحياء بتفجير مقرات الفضائيات التى كانت تنقل للعالم ما يجرى بشفافية وصدق، انهارت قوتنا، ولولا ظهوركم، واختطافنا من المستنقع، لكنا الآن جثثًا فى شوارع القسوة والحقد".

شكرت الجميع، وعندما ترقرقت دموعها على خدودها النضرة احتضنت فتاها، قائلة بصوت عالٍ: "إيه رأيك يا جو؟"

قبَّل الفتى شفتيها الناعمتين، وتحسس نهديها وشعرها المستعار، قائلاً: "أديت دورك بكفاءة".

قاطعت "صابحة" انسجامهم، قائلة دون استئذان: " كونا عصابات لحماية أنفسنا وفتحنا الحوارات مع الأجهزة، لتخفيف عذاب النسوة وآلامهم، وحين طلبنا منهم التصريح بممارسة مهنتنا فى العلن، ووقف اعتداء الجميع على أجسادنا، رفضوا تلبية حقوقنا، بادعاء الخوف من أصحاب اللِّحى، واتهمهم بالانحياز لكيد النساء ".

بكت صارخة: " ماذا كنا نفعل لإطفاء عذابات فروجنا؟ من يطعمنا سوى نهودنا العارية؟ هل فكر أحدكم فى إيوائنا دون الفتك بأجسادنا؟ حين تمكنت خلايانا من خرق الأجهزة حصلنا على الحماية".

"أدت صراعاتكم حول الجاه والسلطان إلى تفجير بيوت النعمة التى كانت تطفئ ناركم، ومع ذلك حين طلب منا كبير الضباط الاستمرار فى ممارسة المهنة، امتنعنا لرفضه التصريح العلنى بحقنا فى الدعارة، سلطوا علينا بقايا الجيوش، فجرونا إلى الشوارع، واغتصبونا على الأسفلت دون حياء".

"لولا ظهور المنقذين الذين يعيدون تأهيلنا الآن؛ لأحرق الجميع فروجنا، بعد رى عطشهم".

خيم الصمت على أرجاء الحجرة، ودون تصفيق أو همس، صرخ رئيس الجلسة قائلاً:"حان الآن موعد الاستراحة "، فى تلك اللحظة اقتربت منى "صابحة" ونظرت بعيونى بطريقة أربكتنى، كأنها تذكرنى بأحضانها الدافئة بخيمة الميدان، فى هذا اليوم، وحين خلعت التنورة التى كانت ترتديها، وطلبت مني تحسس نهودها البارزة تصورتها "أزهار" أخت زوجتى التى عاشرتها يومًا ما بشبق لا ينسى.

" **أزهار** "

كل صباح كانت أمى تضفر شعرى وتضع السندوتشات فى حقيبتى المدرسية، وتنتظرنى فى البلكونة حتى أعود لتدفئ أحضانى.

فى المواسم تحضر عروسة المولد، الممتطية حصانها الأبيض وتضعها فى حجرتى المملوءة بالألعاب والألوان، وفى الإجازات تأخذنى مع أختى إلى قاعات السينما ونجلس على المقاهى ونزور أولياء الله، وبعد وفاة أبى تغيرت حياتنا لانقطاع الدخل وعجزها عن العمل، حينذاك اضطررت للعمل فى ورشة تصنيع العبايات، ودخلت عالم الأسطوات من أوسع أبوابه.

تعلمت وسطهم اللوع والكذب، ولفقت الحكايات لأدارى على براءتى، وحين رافقت ابن صاحب الورشة لأتعرف على أنوثتى، طردونى للشارع بفضيحة.

عدت للمنزل، مقررة الزواج من أول رجل يقابلنى، فى هذه الليلة سار "بلبل" ورائى، فوقفت فى منتصف الشارع، وقلت بصرامة: "عايز إيه منى؟" نظر إلى نهودى البارزة قائلاً: "عايزك يا أزهار"، أمرته قائلة: "أدخل من الباب يا بلبل".

عاد ورائى وطلب يدى من أمى التى ماتت محسورة على بختى الأسود؛ لأنها تعلم بزواجه وبطالته، وافقت على الخطوبة على غير رغبتها، وبعد وفاتها بأيام تزوجت بالشقة وعشت معه أحلى الليالى، لم أبال بأحاسيس أختى، فأنا أيضًا مخلوقة، ولى حقوق ككل النساء، ورغم شكواها من تلصصه على أفخاذها، إلا أننى لم أهتم لخيالها ومبالغتها، وأمام كسله ونومه الدائم بالمنزل اضطررت للعمل ممرضة بالمستشفى الميرى، وصرفت عليها حتى تزوجت وأنجبت الأبناء، ومع ذلك لم أحقد عليها، رغم حرمانى من الخلفة.

وفى يوم أغبر جاء "بلبل" مسطولاً مع زوجته الجديدة وطردونى من الشقة، فذهبت إلى منزل "أنهار"، وكان أملى العيش فى شقتها معززة مكرمة، لكن زوجها تخيل أننى أنظر فى عيونه بشبق، ومع ذلك تركنى وتركها، وفر هاربًا دون سبب.

عندما تمكن "ضيف" زميله من تطليقى من "بلبل "وتزوجنى على سنة الله ورسوله، أذهلتنى رجولته فى أيامه الأولى، وبعدها بدأت حياتى تعود إلى كآبتها، لأنه ككل الرجال لا

يكتفى بنصيبه، وبدأ يتلصص، وينظر إلى نهود أختى بعشق، وللأسف كان ينتظر نومى كل ليلة ليدخل حجرتها ويعاشرها.

رغم أنها أختى، لكنى أحس بكره تجاهها، فالله أعطاها كل شىء، لكن طمعها وإهمالها أدى إلى هروب ابنتها، ودخول ابنها الوحيد السجن.

لم تبال بنكباتها، وظلت حريصة كل يوم على الاستحمام، وتنظيف نفسها وارتداء قمصان النوم المفتوحة أمام زوجى، لم تهتم بمشاعرى واستجابت لتلميحات "ضيف"، واتفقت معه على ممارسة الفاحشة، رغم وجودى.

للأمانة لم يفرط "ضيف " فى واجباته، فدائمًا يعود بأكياس الفواكه واللحوم، لم يسألنا أبدًا عن أى التزامات، فقط كان ينتظر حلول الليل ليضاجعنى، وبعد أن ينتهى منى يدخل إلى حجرتها ويبيت فى أحضانها.

حين شكوت للجار الذى انتشر سيطه وسطوته فى أنحاء البلاد، قال محذرًا: "ارضى بالمقسوم يا أزهار، زوجك رجل، ومن حقه ممارسة الجنس والدعارة وقتما يشاء".

عدت من عنده للمنزل غير عابئة بمشاعرى، ودخلت الحمام عارية، وظللت أنتف فى جسدى حتى عاد، وحين دخل وشاهدنى كعروسة، لم ينتظر الطعام، وجرنى إلى السرير، وعاشرنى كملكة.

" وفاق "

فـى الاسـتراحة سـحبت الفتـاة المسئولة عـن تـأهيلى جثتـى إلـى الحمـام، ودعكـت فقـرات ظهرى، وفتحة شرجى، ليمر الدم متدفقًا فى عروقى.

لـم تتـرك فـى جثتـى عضـوًا إلا ودعكتـه بسـائل الحيـاة، وحـين امـتلأ جسـدى بالحيويـة وانتصب قضيبى، أشـارت إلـى فتـاة أخرى، لتسحبنى بهدوء إلـى السرير، وقامت بمهمتها التـى أعادت السكون إلى روحى.

شـاهدت مـن الزجـاج الشـفاف الـذى يفصـل حجراتنـا، "صـابحة" تلـتهم رقبـة فتـى، ممشـوق القوام، أفزعنا جميعًا صوته، وهى تعض صدره ورقبته كالمسعورة.

بتلـك اللحظـة ارتخـى عضـوى تمامًـا، وانسـجمت أعصـابى مـع عظـامى وأصـبحت أليفًـا، فأشارت فتاتى على الطهاه ليحضروا سلطات السمك المدعوكة فى الخضر واللحم، فالتهمته بيدى الاثنتين كالمفجوع.

وحـين اطمأنـت علـى سـلامتى، أخـذت يـدى، ودخلـت إلـى حجـرة أخـرى، وسـاعدتنى فـى ارتداء بدلتى اللامعة، وعدنا مرة أخرى لطاولة الاجتماعات.

ظهـر الانسـجام المحيط بجمعنـا باديًـا فـى العيـون، وابتسـم الجميـع مطلقًـا النكـات، وعلـى الرغم من العداوة التى كانت بينهم، إلا إنهم نسوا البغض والكره وتحولوا فى لحظة إلى ملائكة.

أصـبحوا مـؤهلين تمامـاً للتصـالح، وَطـيٌّ صـفحة الماضـى، وفـتح صـفحة جديـدة تجمـع أرواحهـم فـى سـلام "لـم يعـد شـيء يهـم سـوى الاسـتقرار"، هكـذا قـال العجـوز الـذى يـدير حـديث المساء.

أعطـى الكلمـة لمنسـى جـارى الـذى تغيـرت ملامحـه، بعـد إطـلاق لحيتـه، وتحولـه لوحش ذى ملامح إنسـانية، انبرى قـائلاً وسط الجمـع: "نقوم مجبرين بتسليح رجـال الحـارات والمـدن، لحمايـة مصـالحنا، لكن يمكننا بموافقة الضـابط، وصـاحب المحل، ومـدير المصـنع إبـرام اتفاق يقـى الجميـع شر المخاطر، وبرضائهم يمكننا أيضًا إطلاق جيوش الصبية التابعين للأحياء لردع المتمردين".

تحدث كثيرًا عن الأحياء والأسواق والسلاح، ثم أنهى حديثه الرائع المنظم، بأسئلة كثيرة، عجز الجميع عن الإجابة عنها.

حينذاك شاهدت "صابحة" تضاحك صاحب المحل الملتحى الذى سرق أتباعه قميصه، داعبته وضحكت بلوع جعل المجتمعين يندهشون من فجرها، خاصة عندما أمسكت بقضيبه غير عابئة بهيبة المكان وفخامته.

استرسل الجميع فى الحوار، ولم يحسوا بوجودى، منسجمين مع الحياة الرائعة، سعداء بوفاقهم لحل مشاكل البلاد المستعصية، وقتها تصورت أن الرئيس سيعطينى الكلمة لأتحدث مثلهم، لكنى فوجئت بقراره فى إنهاء الجلسات، كدت أصرخ ليعطينى الفرصة كى أسرد حقيقتى.

لكن الجميع سحب فتاته، واتجه إلى حجرته، لتجهيز نفسه لسهرة العشاء.

دون إرادة منى، وفى غفوة انشغال الجميع بتقبيل الشفاه، وسماع الآراء فى المنظمين والطعام وحلمات وأرداف الفتيات، انسحبت هادئًا من القاعة.

لاحقتنى الفتاة المسئولة عن تأهيلى، فطلبتُ منها تركى للتجول حول الفندق، والعودة على العشاء صافى الذهن، نظرتُ للفضاء مستكملاً: "رائحة البحر تخلب عقلى، دعينى أستمتع بدفء موجاته، وسوف أعود قبل موعدكم".

" شيرى "

علمونى فى بلادى أننا أسياد هذا العالم، وأن باقى البشر يحتاجون رعايتنا وتأهيلنا كى يحسوا مثلنا ويشعروا بالفرق فيجتهدوا ويواصلوا عملهم ليلحقوا بركبنا.

دربونا فى الجامعة ومراكز البحث أن إدارتنا للعالم ليست تسلية، ولكنها عملية طويلة يلعب كل منا دوره لإنتاج الخير وتوزيعه، ولكن يجب تجديد خططنا باستمرار لضمان سيطرتنا على دفة الأمور.

اختارونى ضمن فريق تأهيل الحكومة الجديدة التى تدير هذه البلاد بسبب دراستى فى معهد فض النزاعات وخبرتى فى فنون التفاوض وتعاقدوا معى لمدة ثلاث سنوات كفترة أولى قابلة للتجديد.

تركت أمى وأصدقائى بقسوة لم يتعودها منى، وجئت لتنفيذ المهمة المقدسة شاعرة بمسئوليتى، ونفذت الوصايا العشر لقتل المشاعر والحواس.

أنفذ مهمتى تحت رعاية العجوز وبرئاسته، أحفظ تعليماته عن الخطوات المحسوبة بدقة لمعرفة خبايا القادة الذين ندربهم، أعايشهم لأتعلم منهم سر الخنوع والرغبات التى يجب ريها لنتمكن من السيطرة على عقولهم، نعم نغذى صراعاتهم باستمرار لنتمكن من إدارة حياتهم وتنعم شعوبهم بالأمان.

أذهلنى هذا الرجل الذى محونا ذاكرته، فحين يلتقط الأحداث، وتجرى بأعماقه فى براءة ويتفاعل معها، ويخرجها كمرثية أفهم أحزان هذه البلاد وأفرحها.

حين أصبح عقله خاويًا، وتحولت روحه إلى سحابة بيضاء، أضحى مسالمًا وطوعًا وغير ممتعض، عملت حواسه بكفاءة وبراءة خلاقة، رغم حيرته وفقده لهويته.

كانت المهمة التى على عاتقى هى معرفة شفرات روحه لتعينه فى المستقبل كأكبر وكيل لإدارة مصالحنا، أدى تقدمى معه، وكتابة التقارير عن مراحل أعماقه وكيفية إدارتها وطرق التأثير فيها إلى إعجاب رئيسى العجوز الذى لم تبادلنى عيونه الرضا.

ومع ذلك عجزت عن فهم مكنون أعماق هذا الرجل، وتساءلت كثيرًا عن سبب اختيارهم لشخصه، وتعجبت أكثر من قبوله، رغم انكساره البادى من نظرة عيونه، لكن هناك شيئا قاسيا خلاف ظروفه جرح قلبه وكسر روحه، وحين سألت رئيسى عن مأساته، نظر إلىّ ضاحكاً، وقال: "لم يحن أوان كشف الأسرار يا شيرى".

أتحمل يومياتى الجديدة فى هذه البلاد كى أفهم مغزى حياتى، يعطونى مرتبًا كبيرًا، لكنه لا يعوضنى عن رؤية أمى، ومتعة جلسات السمر بين أصدقائى.

فى البداية كنت مؤمنة بصحة مهمتنا، وعندما طفت فى هذه الحوارى بعد تغطية شعرى ووجهى، وشاهدت وجوه البائعات البريئة التى تملأ الأسواق، وزرت مدارس الفتيات، تيقنت أن هناك شيئًا خطأ يجب إصلاحه فى نظامنا، إذ لا يعقل أن يظل هؤلاء المساكين جوعى ومرضى بدعوى الاستقرار، وعدم اكتمال نضجهم، لكن الشيء الذى أبهرنى أثناء جولتى هو وجوه أغلب الناس الضاحكة الآملة فى السلام .

أحسست بأنهم يعيشون فى زمن آخر، رغم حياتهم معنا فى نفس اللحظة، وعلى نفس الكوكب، لكنى لم أجد تفسيرات لأشياء كثيرة، لذلك حين أنتهى من المهمة سأطلب إجازة طويلة لأعيد ترتيب عقلى كى يستوعب ما نفعله دون أسئلة قد تطيح بوظيفتى.

لا أعرف كم سيمر من الزمن لتتم ترقيتى من مؤهلة إلى باحثة لها دور فى التخطيط وتقاسم الأفكار، أحس بأن أمواج البحر وبياض الثلوج وعيون قطتى ونباح كلبى ونبرة صوت أمى ينتظروننى، فهل يسمحون لى بالعودة هذا العام لأتدفأ برحيقهم؟

" جسر "

خرجت من الفندق إلى شوارع المنتجع الذى يفوح بعطر البنفسج، تأملت المياه التى تحيط بجباله، فشاهدت جسرًا يربط بين هضبتين، مملوء بالمارة والسيارات، ترجلت بأقدامى ناحيته، وحين وصلت إلى مدخله، فوجئت به كلوحة كبيرة، منحوتة ببطن الجبل كجدارية.

تلمست جدرانه، وتحسست أنواره، كل شىء فيه حقيقى باستثناء المياه التى أحاطت بضفتيه، زينها رسام فى حرفة بارعة بوضعه كمية ضخمة من الألوان الزرقاء الصافية كى تظهر فى الخلفية كمياه حقيقية، ملأها بمراكب ومصطافين بملامح واضحة، وعلى الرغم من ظهور الجسر أمامى كلوحة، لكنى تصورت إمكانية الصعود عليه والمرور بين جدرانه إلى الشاطئ الآخر.

لم يكن يهم كونه حقيقي او جدارية منحوتة وسط الجبل، فالمهم تحقيق رغبتى فى العبور، لم يهم أن البشر الجالسين على جوانبه صور أو تماثيل، فالمهم مصافحتهم وإلقاء السلام عليهم، وأنا راحل إلى جانبه الآخر.

لا أدرى لماذا تذكرت "جسر الغرقانة " الذى يفصل بين قريتى ونجع الغجر، لم يكن يفكر أحد أن يمر عليه حتى لا تطاوله رصاصات الأشرار ولصوص المواشى، ومع ذلك تجرأت إحدى العجائز بالقرية وذهبت لإعادة جاموستها المسروقة، وأمام إصرارها سار الجميع بجوارها، رغم رعبهم، إلا أن رصاصة غادرة جاءت من بندقية شيخ الغفر أودت بحياتها، وسقطت من على الجسر فى ترعة المحمودية غير مأسوف عليها، وصرخ الشيخ فى الجمع ليعودوا إلى منازلهم تاركين جثتها للكلاب.

وفى لحظة مباغتة راودتنى فكرة عبوره، فنظرت للجبل والبحر، وتأملت المنتجع المحاط بالأشجار والحدائق، وحين دققت فى الأنوار التى تتلألأ وتملأ الشاطئ الخالى من العمال والمراكب عزمت على مواصلة الطريق.

ظهرت الطرق الممهدة خلف الهضبة أمامى كأنها تدعونى للعَدْو، واجتزت مدقات الجبل غير عابئ بطولها أو الظلام الذى يدثرها حتى تفاجأت بجسدى وحيدًا بين ظلامها، حينذاك انتاب جسدى قشعريرة، وظهرت أمى كيمامة ترفرف من فوقى، كأنها تطالبنى بمواصلة سيرى،

دست على كعوب أقدامى لتتسارع خطواتى وسط السحالى التى تشاركنى رحلتى مع السماء والنجوم وصوت الكلاب المنبوح.

شعرت بالهمس يتزايد من حولى، كأن أشباحًا وشياطين يتابعونى، وتخيلت صوت العجوز الصارخ وسط عيون الرجال المنبهرين من نضارة نهود فتياتهن، وسمعت ترديدهم الكلمات المخزية لهروبى من الجنة.

لا أدرى لماذا أحسست فجأة بوخز فى ضميرى، واستسلامى وموافقتى على كونى وعاءهم الذى يدخلون فيه المعلومات، ويسجلون فيه حديث وملامح العامة والقادة والضباط، كى أهضم بأعماقى مواقفهم وتأوهاتهم، وأخرج انطباعاتى كحلم مقروء، تساءلت ساخرًا من نفسى: "بماذا يفيدهم هذا الهراء؟ أيستفيدون من قراءة ضميرى؟ وماذا تقدم لهم أحلامى أو رؤيتى الظاهرة أو المخفية؟"

لماذا أعطونى الأمان، وتركونى أتفاعل وأندمج وأتفرج وأخرج مخزون روحى ليقرأوه بعناية حال كل موقف؟

الآن أتذكر الكاميرات المخفية، والتى كانت تظهر كطيف رجل يلازمنى، والتى علقوها فى قلبى، وراقبت مشاعرى، وضبطت أنفاسى، وهى تسجل همس زملائى وحذر مدير المصنع، وسطوة صاحب المحل الملتحى، وفجر داعرة الميدان، وعيون جيرانى القاسية.

وسط توهماتى وانطباعاتى الغريبة وجدت نفسى بمواجهة هضبة صخرية سوداء، تحسستها بيدى غير عابئ بصوت خَرْوَشة جلود حشراتها وحياتها وثعابينها التى أدوسها بأقدامى.

سرت ببطء حول الصخرة، متلمسًا جدران الممر المظلم الذى يشق الجبل وتلمع صخوره على ضوء النجوم، ودون تردد ترجلت محنيا ظهرى وداخلاً إلى أعماقه.

القسم الرابع: سراب

" شيخ "

فى شبابى خضت معارك كثيرة، وتعاملت مع الصهاينة الذين شهدوا بفراستى، أحفظ أسرار وممرات الصحراء التى لا تُفتح أنفاقها إلا بأمرى.

أحكم وأشرع وأنزل بالعقاب على المخطئين، فى حياتنا لا وقت للشفقة أو الرحمة، فصوتى تعرفه النساء حين ينطق بالحكمة، ويخافه الأشقياء حين يأمر بالقتل.

فى صباى تغلبت على أسد الصحراء، يومها فوضنى مجلس القبيلة كأمير، وسيد للكل، أبارك الزيجات، وأفصل فى الطلاق والزواج والموت والحياة، وكلمتى لا رجعة فيها.

ورغم أنى أسرت فى معسكرات الأعداء، لكنهم عاملونى كبطل، ولم يتجرأوا يوما على إهانتى؛ لأنهم يعرفون أصولى العربية التى لا تتذكر إلا الإساءة.

كل شىء أعد فى الواحة لأكون سيد هذا الربع، ورغم تفحم حواسى لإعلاء مصلحة القبيلة، لكن قلبى يرأف أحيانًا، بأهلى وأبناء عشيرتى.

أحيانًا كثيرة تنتابنى نوبات بكاء.

بهذه اللحظات أتحاشى الجميع، وأعتكف فى خيمتى لأتطهر من ذنوبى، وبتلك الأيام أنحر الذبائح، وأتبرع بلحومها لأبناء الواحة لينعموا فى خيرى ويغفروا قسوتى.

حين حرق الصهاينة أرض الواحة وخيامها ونزلنا من جبل الحلال لنعيش بين أبناء الضواحى والقرى، أحسسنا بالغربة فى أحيائهم، وعاملونا كمجرمين، فبمجرد أن يأتى ذكرنا يخافوا، ويهابوا وجودنا، ويعاملونا كقطاع طرق، وينادوا علينا بصفاقة يا "غدارين"، وبعد رحيل المحتلين وعودتنا للصحراء أحسسنا بالحياة تعود لأرواحنا.

ومع ذلك ظلت المخابرات حلقة الوصل التى تربطنا بالقرى والمدن، يفاوضونى قبل الإغارة على الجبل الذى يأوى الأشقياء والهاربين ، لكننا لا نرحم أحدًا، ونعامل المغاوير كفريسة مصيرها القتل والفتك.

لا يفهم الضباط وجهة نظرنا، ويعتقدون بأننا نبيع أولادنا من أجل المال، ويذكروننا دائمًا بصفقات المخدرات والسلاح التى تمر من أنفاقنا إلى ضواحى البلاد؛ لكنهم لا يفهمون معنى ضيق الرزق، خاصة فى السنوات العجاف، ولو لم نفعل ذلك لمات أطفالنا ونساؤنا جوعًا.

عندما وصفوا شكل هذا الغريب الذى يرغب فى دخول الواحة من الممر تشممت رائحته كالكلب، وعرفت بأنه برئ، لكنى انتظرت رؤيته حتى يزول الشك من روحى.

فى الصحراء يجب أن تشك فى نفسك وأولادك، فليس للنجاة طريق بديل سوى الموت.

"عطش"

الحواس تغيب ولا شيء فى الممر المظلم سوى صوت أقدامى، وحذر أذنى التى تترقب الهمس، فجأة صرخ رجل وسط الظلام: " مين هناك ؟"

رددت بتلقائية: "أنا الغريب".

وفى لمح البصر كتف شباب ملثمون يدى وفتشوا جيوبى، وحينذاك خرج العشرات يمسكون بأياديهم قناديل مضيئة مثل الأقمار، فنظرت لوجوههم فى صمت، وهم يرفعون بنادقهم فى مواجهتى مدهوشين.

نظر أحدهم بغرابة لملابسى وزغدنى، قائلاً: "انت تبع مين، وعايز ايه؟"

رددت على غير إرادتى، قائلاً: "رشفة ماء".

سحبونى داخل الممر، وهم يتهامسون بشفرة لم أتمكن من حل طلاسمها، حتى وصلنا إلى واحة واسعة دقت في جوانبها الخيام، وانتشر حولها النخيل وأشجار السنط .

أدخلونى على شيخ "عجوز"، فنظر إلى عيونى وشدنى من رقبتى لأقترب من وجهه، وتجاهل صمتى قائلاً: "ضعوه فى الخان حتى الصباح".

تركونى وسط أسوار الخان ، ووضعوا فى ركنه رغيفًا جافًا مدهونًا بالعسل وقلة مكسورة، التهمت الرغيف بنهم وتجرعت المياه، وتمددت متأملاً النجوم.

الليل فى العتمة مر، ورمال الصحراء تخفى الأسرار ، يذكرنى القمر بقريتى البعيدة التى طرد فلاحوها البدو من كفورهم إلى الأجران ونعتوهم بالجرب، وحينذاك رد شيخ العرب على إهانتهم قائلاً: "تجوع الحرة ولا تأكل فى بيت الفلاح".

كأن ملامح جسدى تهرب ، فأدخل بالنوم العميق غير عابئ بالعقارب، طارت روحى وحطت فى الحى لتشاهد زفاف ابنتى على بائع البطاطا، ومن فوقهم امتلأت السماء بالأقمار والنجوم والأكف البيضاء التى تبارك العُرس.

وقف أهالى الحى حاملين سلات مملوءة بالزهور بجوار فتاتى التى تنتظر حضورى، قدمدت أمى إليها بوكيه الورد، فنزلت دموعها على خدودها قائلة: "لا يهم الزواج منه، فقط أريده بجوارى".

ابتعدت عن الفرح، ونظرت ناحية السماء، مكتشفًا فتحة سحرية بين نجومها، وحين اتسعت الفتحة، وتحولت لطريق كبير يطل على أراضٍ خضراء مملوءة بالأشجار، ومحاط بالفلاحين الذين يحرثون الأرض وسط ندى الصبح، أمطرت السماء من الفتحة الواسعة سلامًا على روحى.

أعادتنى الشمس الحارقة فى الصباح من أحلامى، فقمت وأطلقت العنان لجوارحى لتفريغ الخبائث من بطنى، حينذاك دخل الفتيان وجرونى مرة أخرى لخيمة شيخ القبيلة.

سارت بجوارى نساء ممشوقات القوام، وجلست أخريات أمام خيامهن ونظرن لملابسى الغريبة فى دهشة، وجرى ورائى أطفالهم الصغار فى صفوف طويلة، ثم هرولوا في المدقات التى تحيط بالواحة كأنهم فى ساحة حرب.

شاهدت الخيول المربوطة أمام الخيام تتناول العلف ، وتنتظر دورها فى الصهيل والعدو، وبركت الجمال على بطنها، وهزت أسنامها وزبدت بفمها يمينًا وشمالاً، كأنها تنتظر رحيلى.

وقفت امرأة مملوءة بالقوة أمام الصبية الذين يجرون أذيالى قائلة: "لا تسحبوه كالأسير"، اندهش الجميع من جرأتها ، وسمعت أحدهم ساخرًا: "لو كان فيه الخير ماكنش وصل حدانا يا عيده"، ناولتنى القلة، وقالت بحب: "اشرب يا ولدى ما تخافش".

حينما وصلنا إلى الخيمة، ووجدوا الشيخ نائمًا، وقفوا برهة حيارى فى أمرى، فصرخ من نومته ليفكوا قيودى ويتركوننى حرًا فى النجع، حينذاك سحبتنى المرأة القوية من يدى، قائلة لهم كأمر : "إقامة المبروك عندى يا كفره".

تذكرت فجأة الحرامى الذى وقع فى فخ شاذلى الصياد، فى هذا اليوم جرى شاذلى وراءه صارخًا: "امسك حرامى، امسك حرامى"، فطارت القرية عن بكرة أبيها وراء اللص الذى سرق

عشرة كيزان ذرة من حقله، وأمطروه بالعصى والشوم على رأسه، وحين سأله "الشاذلى": "أنت منين يا وله؟" لم يرد، فقلبوا جثته يمينًا وشمالاً، لكن روحه كانت قد صعدت إلى السماء.

الجميع خاف من نفسه، وأشفق على اللص الذى عرفوا بعدها بأنه يسرق الذرة ويشويها على جرف المصرف البحرى حتى لا يموت جوعًا، انهمكوا بحزن مقررين غسله ودفنه، وتصارعوا على المكان الذى ستتوارى فيه جثته، لكن شاذلى بكى وصرخ كالمجنون قائلاً: "أنا السبب فى قتله ويجب دفنه بتراب عائلتى حتى يسامحنى على موته"، وظلت روحه تطارده، لدرجة أنه كلما قابل أحدًا يتوسله بأن يطلب من روح اللص غفران قسوته وجنونه.

" عيده "

كنت أصحو من نومى كل ليلة سعيدة بعشقى ل"عيد"، أطلق الأغنام وسط الحشائش، وبقايا القمامة التى يحضرها بسيارته من المدينة.

أجمع الفاكهة والملابس من الأكوام، وأترك للأغنام بقايا الخضر والأطعمة، وحين يصرخ الكبش راغبًا فى امتطاء النعاج أطمئن على امتلاء بطونهم، فأعاود الرجوع إلى خيمتى.

ورغم أن الله لم يرزقنى بالأولاد، لكن أبناء النجع كلهم أولادى، يعطفون على ويسمعون أوامرى، وينادونى بـ "عمه".

لم يتزوج "عيد" علىّ رغم نصائح الأهل والفضيحة التى طالت بيت ولدى، وحين فاتحته فى الموضوع أقسم قائلاً: "على الطلاق منا متجوز عليكى حتى لو موتى يا مره"، فى هذه الليلة بكيت فى أحضانه، ودفأنى بصدره غير عابئ بمعايرات الأهل أو مطالب العشيرة.

وحين اغتاله مغاوير الجبل، وعاد الرجال بجثته، عزمت على قتل شهوتى، وغنيت مئات المرثيات على فراقه، لم يفهم حزنى أو يحس بأحزانى إلا شيخ القبيلة، لدرجة أنه بكى معى فى ليلة لم يظهر فيها قمر أو نجوم.

بعد ثلاثة شهور استدعانى، وجلس معى ساعات يطلب منى السماح والعفو، كى يرتاح "عيد" فى قبره، قائلاً بأسى: "يأتينى كل يوم فى أحلامى لترأفى بحاله وتوقفى حزنك"، ضحكت وبكيت في نفس اللحظة ، فكيف للمرأة أن تنسى رائحة وليفها.

عندما وعدت الشيخ بفك الحداد، طالبنى بالزواج من "زيدان"، فرفضت حديثه وذكرته بالعهد ، ورغم ذلك يخاف رجال النجع من صوتى ، ويعرفون قدرى عند مجلس القبيلة.

لم ينسوا يومًا شجاعتى ودفاعى عن النجع يوم هروب الرجال من الجيش فى الأنفاق، منذ ذلك الوقت يرفعنى الجميع فوق رأسه كالشامة، لكن الصبية يتلصصون كالكلاب حول خيمتى ليلاً ليشاهدونى عارية، أحس برائحتهم رغم انتشار الظلام، وأصرخ فيهم ليبتعدوا كالماعز والكلاب.

عندما أتى الغريب إلى النجع، أحسست بأنه ابنى، فأخذته فى حضنى، واستضفته، وأطعمته المخلوطة، كأنى أتصدق بطعامى على روح الغالى متمنية تقبل الله لدعائى وحشره يوم مع الصالحين.

لا يؤنس وحدتى سوى طيف المرحوم، يأتينى دائمًا بأحلامى، ويظل بأحضانى ساعات طويلة، ولا أعرف لماذا أتذكر هذه الأيام رائحة عرقه، وهو يضاجعنى كملكة، يارب صبّر قلبى، واجعلنى دائمًا وفيّة لعهده.

" ليالى "

قالت المرأة القوية التى أدخلتنى خيمتها: "لم تتعطر برائحة الرجال منذ سنوات يا زلمة"، وأشارت بيديها لأجلس على الكليم، وانشغلت بتقديم أطباق العسل والجبن فالتهمتها بنهم، وكادت عيونى تسألها عن سر نضارتها، لكن سكون عينيها أخرس لسانى.

هرولت الفتيات، وجلسن بجوارى وتحسسوني كدمية، وسألونى عن أفلام التليفزيون، هل هى حقيقية؟ وصرخت إحداهن قائلة: "كيف تعاشر زوجتك يا مذلول؟" فضحكت إحدى العجائز، قائلة: "وهل يتزوج الدراويش يا موكوسة؟"

لم تهب النساء، وجودى وتناولن أكواب الشاى ودخن المعسل، وحكين عن الفرسان وسروحتهن بالأغنام وسط الشقوق والوديان، حينذاك انطلقت أرواحهن بين أنفاق الجبال، ودخلت الرغبة مسمات أجسادهن، فخلعن ملابسهن السوداء، وتذكرن أفراح الأمس وليالى العشق.

بعد مرور اليوم الأول، وهروب الدهشة من عيونهم عشت بينهم كطفل مدلل، أسرح طوال النهار بأغنام "عيده"، وأنام آخر اليوم بجوارها، لكن حكاوى الليل التى لم تنته وسط النساء والأطفال جعلت منى شخصًا أليفًا، عرفت أنواع الشجر والحشائش والجمال، وفهمت سر ليالى الصحراء التى تمر بطيئة، وهم يحكون عن الوجيعة والأفراح.

استدعانى شيخ القبيلة مرة أخرى إلى خيمته، وحينذاك قال أحد رجاله، وهو يجرنى من وسط الأغنام: "يكفيك فرجة علينا يا غريب".

دخلت عليه مأسورًا بهالته، كان يغسل يديه، استعدادًا للصلاة، تربع حوله عدة رجال على أطراف الحصير، منتظرين بلهفة سماع حكايتى، نظر إلىَّ قلبى قائلاً: "اجلس بجوارى يا ولدى".

بعد سجوده وتركعه طلب إحضار القهوة لضيفه، وتنحنح قائلاً: "أنت فى بيتك يا مبروك"، سألنى برقة عن أهلى، فقصصت حكايتى منذ هجرتى للقرية حتى طردى من الحى.

اندهش الحاضرون من انتشار السلب فى الأحياء، ولم يصدقوا عودة الغجر لأجران الفلاحين، صرخ أحد الرجال قائلاً: "من دلك على الشق يا منجوس؟ وكيف وصلت حيًا رغم الحراس والمغاوير؟"

نهره الشيخ صارخًا فى وجهه: "اخرس يا زيدان"، طبطب علىّ قائلاً: "اطمئن يا ولدى ولا تخف من صوته".

" زيدان "

أكره صوت هذا الغريب الذى تؤكد نظرته احتقاره لنا، ومع ذلك لم يأمر الشيخ بقتله؟ كيف فتح بقلبه ثغرة ليؤوى شخصًا لا نعرفه، ولا توجد مصلحة لحماية حياته.

يعرف الشيخ أننى الفارس الذى تخيف عيونه الأحصنة والجمال، حتى نسائى الثلاثة يتوسلن قلبى لأرحم أنوثتهن وأنعم عليهن بالحب، ورغم أنى لا أعرف أسماء أبنائى وبناتى ، لكنهم يرتعشون من ذكر اسمى بأى مجلس ويتمنون الموت قبل ملاقاة وجهى.

أحس بأن هناك بلوى كبيرة تنتظرنا بعد إيواء الغريب بخيمة "عيده" ، فتحت خيمتها لنجاسته، وعاملته فتيات النجع برفق كأنه أخوهم، فجأة تحولوا لبشر ونسوا دورنا فى حماية الواحة من الأغراب.

حين نهرنى بالمجلس لم أتمكن من الرد عليه كالعادة، وظللت صامتًا مكظومًا بغيظى، ولم أسرد مخاوفى، وتحولت لقطة ، أخاف أن يأتى اليوم الذى يأمر فيه بقتلى.

أعرف أنه لن يتوانى عن إصدار أوامره إذا تفوه لسانى بمعارضته، ولن يغفر كونى ابن أخيه، فأنا أعرف قلبه الميت .

ومع ذلك ظهرت فى عيونه اليوم أهلة للرحمة، أيجب أن يكون الرجل منا غريبًا أو مبروكًا لينال رضاه؟ فحين قصصت على مجلس القبيلة أنباء الهوجة التى تدور حولنا فى الأحياء ضحكوا قائلين: "يا ما دقت ع الراس طبول يا زيدان".

لكن العيون الميتة التى نراها على الطريق السريع، والأسلحة والمخدرات التى نسمح بمرورها هذه الأيام، تؤكد أن شيئًا ما يحدث بالمدينة سوف يقلق منامنا.

ما يحزننى أن رجلاً آخر يستمتع بالنوم بجوار المرأة التى حلمت برضاها، ولولا شيخ القبيلة لشربت دماءه وسط النهار.

حين شاهدتها تخدم عليه تعجبت من جنس النساء التى قال عنهم رب الكون: "ناقصات عقل ودين"، فكيف ترفض الزواج من فارس وتسعد فى صحبة معتوه؟!

عندما أشاهد الشيخ فى المساء سأطلب منه مرة أخرى مفاتحتها فى أمرى، أيجوز أن قلبها القاسى انفتحت أبوابه لشم رائحة الفرسان، إذا وافقت فسأذبح الناقة الصغيرة وأنصب فرحًا لمدة أسبوع وأعزم النجع كله ليأكل، فالتمتع بوجه "عيده" فى الصباح هو أمل المحرومين .

" **جيوش** "

تنحنح الشيخ أمام مجلس القبيلة قائلاً: "لم يدخل نجعنا منذ مائة عام أى غريب"، وسألهم بصوت عال: "أهذه علامة على اقتراب الشر، أم هدية بالبركة ألقتها علينا السماء؟"

نظروا جميعًا ناحيتى فى صمت كأنهم يعيدون بأعماقهم كلمات الرجل ليفهموا السر، ورغم صمتهم، لكنهم أحسوا مثله بالخطر.

عند ذلك هرول شاب ناحية الشيخ قائلاً: "الدبابات تحيط بالجبل يا جد، وتبحث بين الصخور عن أتباع الغنتورى"، صمتوا جميعًا، وانتظروا صوته الذى خرج قائلاً: "كيف عرفت يا ولد؟" رد برعب: "اتصل سليم، وطمأننى على سلامة نيتهم تجاه أهل الواحة، وطلب منى إبلاغك الرسالة: "لا داعى للمقاومة".

تحدث الرجال مع الشيخ محاولين فهم الرسالة، وانبرى معظمهم مدللا على ضعف الجيش، وعدم تحمله المعارك الخاسرة وسط الجبال، وأظهر آخرون غدر العسكر بعد انقضاض المغاوير عليهم وسرقة أسلحتهم، ومطاردة جنودهم وقتلهم، أشار أغلبهم بضرورة المقاومة، وأكد آخرون ضرورة قيامهم بتطهير الجبل من المغاوير، حتى يسلموا من الدانات والصواريخ، وبعد ساعات طويلة من النقاش ظهر من بعيد ثلاثة ضباط يتوسطهم أعرابى ويقفون فى حيرة منتظرين الإشارة، فأمر الشيخ بخروج ثلاثة رجال لاستقبالهم، وطلب من الباقى انتظار أوامره.

بتلك اللحظة أحسست ببنادق الرجال تتأهب للقذف، شدوا الخزان وتجهزوا للقتال، وانبرى بعضهم غاضبًا من ظهور الضباط وسط النجع دون انتظار إشارة الجد بمقابلتهم، وعند ذلك دخل الأعرابى الذى أطلقوا عليه"سليم" مع الضباط المعتذرين عن تجاوز حدودهم ودخولهم إلى النجع دون استئذان.

تنحنح أحدهم بعيونه الصفراء، قائلاً: "نحن عبد المأمور يا جد، الأوامر صدرت، وليس علينا إلا تنفيذها"، رد الشيخ بصوت جهورى: "تعودنا ظهوركم وقت الموت".

فاستكمل الضابط: "نحتاج لرأس الغنتورى وعصابته"، وتنحنح آخر بصوته المملوء بالرعب قائلاً: "خطفت عصابته ثلاثة ضباط، وحرقوا الدبابات والمعسكر ، كان يمكن التضحية

بالضباط وإطلاق سراح رجاله الذين طالبنا بالعفو عنهم، لكن العامة علموا بالخبر فضاعت هيبتنا ".

أجاب العجوز بهدوء: "لا نعرف شيئًا عن صراعكم، الجبل واسع وابحثوا عنهم بعيدًا عن الواحة".

تلعثم قائد الضباط، قائلاً: "المرشدون يؤكدون اختباءه فى الجبل المحيط بالواحة"، حينذاك طلب الشيخ من "سليم" الاقتراب منه، وعندما انحنى الشاب أمامه، لطخه على وجهه، قائلاً: "علِّم ضيوفك الأدب يا ولد، لا يوجد فى واحتنا أشرار، اغربوا عنا، فلا نرغب فى رؤيتكم، أو سماع أصواتكم".

دللت المقابلة الجافة على رعب الضباط وثقل المهمة التى كلفوا بها، وكادوا أن يتبولوا على أنفسهم، خاصة حين طردهم الشيخ بوقاحة قائلاً: "اخرجوا، مات الكلام يا خونة".

جرى الرجل الذى سألنى عن كيفية وصولى للنجع وراءهم، قائلاً للشيخ بصوت متوسل: "دعهم يشربون الشاى قبل رحيلهم يا عم".

لم يهتم الشيخ بصوته الخنوع، واستكمل قائلاً: "لستُ راغباً فى وجودكم أكثر من هذا، الخيام لها حرمة يا أنجاس"، خرج الضباط، وهم يُبَرطِمُون ويشكون لأنفسهم معاملة الشيخ الجافة، بتلك اللحظة أشار إلى بعض رجاله ليتعقبوا أثرهم، وعرف ببصيرته أنهم لن يعودوا إلا بالصيد الثمين، حتى لو اضطروا إلى حرق النجع.

على أثر ذلك ودون اتفاق أو مناقشات هرب سكان النجع، وأخذوا أحصنتهم وجمالهم وطعامهم وغادروا إلى مخابئ الجبل، ولم يتركوا إلا الخيام الخالية من الحياة.

وسط الرحيل الجماعى شاهدت شابًا ينزل من فوق حصانه مُقَبِّلا يد الشيخ، قائلاً برعب: " الجبل كله محاصر ورجال "الغنتورى" يملأون الشقوق"، قال العجوز: "احموا النساء، ولا تجعلوا أحدًا يشم رائحة ملابسهن، أو يحس بوجودهن"، رد الشاب: " فى صف من نحن يا جد؟" نظر بغيظ ناحيته قائلاً: "بلغ الرجال الاستعداد حتى انتهاء المعركة".

وحين دكت أصوات المدافع المرتفعة صخور الجبل، وحمل الشباب الشيخ وجروا بين المدقات، نظر ناحيتى قائلاً بود للفتيان: "اخفوا الغريب فى نفق المحبوب".

" سليم "

أقاموا خيمتى بعيدًا عن النجع بجوار أسوار المعسكر، وجهزوا مقهى صغيرًا ليؤوينى وحيدًا بالليل والنهار، وطلبوا منى إعداد الشاى والطعام للجنود والهاربين كى أعرف أسرارهم وأنقلها أولاً بأول للشيخ.

عندما طردونى من النجع قال الجد بحب: "وجدناك ملقى أمام الجوامع يا سليم، فعطف عليك رجالى، وأحضروك إلى واحتنا لاستكمال تربيتك"، ضحك "زيدان" يومها ساخرًا من حديثه؛ لأن الجميع يعلم أنهم أسرونى بعد مقتل أسرتى، لكنه ربانى مثل أبنائه، وعطف على ولم يفرق بينى وبين أبناء القبيلة.

أوانى ببيته وعاملنى كابنه، وحين نبت شاربى قرر طردى من النجع، لا يهم كل ذلك، فدخل المقهى يوفر لى مبلغًا محترمًا يمكننى الهروب به فى الأيام القريبة إلى المدينة وأبدأ حياتى من جديد.

أحس بأن الشيخ يعرف مكنون روحى، فحين أزور النجع لأبلغه بهوية رواد المقهى، يسألنى عن موعد رحيلى، فأتجاهل أسئلته وأغادر صامتًا.

لا أتذكر من حياتى السابقة أى صور، ولا أعرف الحى أو القرية التى ولدت فيها، أو سبب إغارة رجال القبيلة على أسرتى وقتلهم.

ورغم ذلك يأتينى بمنامى بعض الأحيان وجه لامرأة تدعى أنها أمى ، تبكى لحالى وتأخذنى بحضنها وتطالبنى بالهروب.

أشاهد بعض الأيام أحلامًا أخرى كأنى أعيش وسط شوارع تمتلئ بالأنوار، رغم أنى لم أفارق الجبل فى حياتى، لكن المقاهى والبنات التى تأتينى تدل على أن أسرتى كانت تعيش بالمدينة، لا يهم كل ذلك، فالمبلغ المدخر يكفى لرحيلى من هنا.

رغم إحساسى بالغبن تجاه "زيدان"، لكن "عيده" عاملتنى كأم، تمر علىّ أثناء سروحتها بأغنامها، وتجلس بجوارى ترتشف الشاى، وتطمئن على حالى، وتملأ روحى بالسلام.

لولا خوفى من الشيخ لطلبت منه تزويجى من "سليمة" ابنة أخيه التى صاحبتها قبل طردى، أعلم أنها تتمنى العيش معى، لكنى غريب، وليس لى أصول عربية تزكينى عنده ليقبلنى زوجًا لها.

بعد هروبى وشرائى مقهى ومنزلاً بالمدينة سوف أعود كشيخ عرب بسيارتى الجديدة، وأملأ خيامهم بالهدايا كى يقبلونى ابنًا وزوجًا لحبيبتى "سليمة".

لا أدرى لماذا شعرت بالخطر حين أبلغنى كبير الضباط الرسالة، وسارعت بتوصيلها إلى الشيخ، تيقنت باقتراب ساعتى الأخيرة، فالجميع يرغب فى التخلص منى، رغم أنى همزة الوصل الوحيدة بين عوالمهم.

" مغارة "

سرنا وسط الظلام فى "شق الأولاد" دون همس، وبين الحين والآخر أتلصص على وجوههم وملامحهم التى تظهر وتختفى إثر ضوء سجائرهم المشتعلة.

عندما وصلنا إلى مغارة واسعة، حط الرجال بجوار رجل "عجوز" يجلس بأحد أركانها بجوار راكية النارويدعي " محبوب "، شاهدته يناول الفتيان أكواب الشاى وقطع الخبز، حينذاك نبهه أحد الرجال إلى وجودى، فسلمنى كوبًا من الصاج مملوء بالشاى، فارتشفته متجاهلاً عيون الجميع المغروسة فى قلبى، والمتساءلة عن سر احتفاظ الشيخ بحياتى.

عند ذلك رد الرجل الجالس بجوار النار، وهو يتحسس شعر رأسى، كأنه قرأ مشاعرهم: "ده بركتنا يا غجر".

بعد لحظات صمت انبرى الأولاد فى الاستئثار بالمغانم، وحكوا بفخر عن زيجاتهم الكثيرة، واستطردوا فى عرض محاسن نسائهم، وتندروا حول رجولة فلان وفحولة عِلاَّن، دون أن ينتبهوا لوجودى.

وحين رددوا أسماء نسائية كثيرة شعرت بالسعادة تملأ ظلام المغارة، الألوان التى وصفوها لملابس بعض المطلقات أو اللائى رفضن الارتباط بأى رجل، جعلتهم يلغون بأفواههم من حولى كالجمال، وكأنهم يأكلون "عيده" بأسنانهم.

تبادلوا بأسى سيرة بعض المفقودين، أثناء قطعهم للطريق أو سرقتهم للأحياء، ذكروهم كأنهم شهداء أو أبطال، وحكوا ببراءة وفخر عن روائح الدم، والبطون المحشوشة، والمنازل المحروقة، والزرع المتلوف، والأحياء المدمرة، والوجوه المرعوبة التى أحاطت بكل هذا الخراب الذى صنعته أيادى رجالهم.

عاد الذهول إلى عقلى، وأنا أشاهدهم يقتلون الوقت بالعراك كأنهم فى ساحة حرب، وسألت نفسى فى صمت: "أيتدربون على الموت أم يرغبون فى الحياة؟!"

الشقوق التى تملأ الوجوه وتتمنى الخروج من المغارة راغبة فى النور، جعلتنى أتذكر نسمة هواء البحر ودفء الحياة بمقهى الميناء، تمنيت التظلل للحظة واحدة بأشجار القرية ونور

الشمس المحيط بجوانبها، ورغبت فجأة فى احتضان ابنتى التى هربت فى يوم لا أتذكر نهاره، تمنيت، وأنا أسمع حكاويهم النوم على سرير فتاتى التى تجاور حجرتها السماء.

حين صحوت من ذهولى وجدت الضباط يحيطوننى من كل اتجاه، وخلال لحظات شاهدت فرسان النجع مقيدين بالسلاسل ورؤوسهم متدلية فى خنوع.

أدت قنابل الغاز التى أطلقها العسكر فى الشقوق إلى ترنحهم وفقدانهم الوعى، الوحيد الذى قاوم وجودهم هو" محبوب " الرجل الأسود الجالس بجوار النار، فحين وضع أعراف الشجر فوق ناره عاق عمل غازهم المميت، وقاوم بشراسة مدافعهم، وعندما اقترب أحد الضباط منه أكل رقبته، فخرموا جسده بالرصاص.

أمسكنى كبير الضباط، وهو يضع الواقى على أنفى، قائلاً بصوت أجش: "أخيرًا وقعت".

اكتفى الضباط بقتل حيواناتهم وسرقة بنادقهم ودهس دمائهم وحرق خيامهم، كأنهم يسقون النجع من نفس الكأس التى رووا بها الأحياء، لم يتركوا إلا الأحصنة الخشبية والطيارات الورقية الملقاه فى الطرقات، سحبونى وعادوا من الشقوق إلى أرض الواحة، حينذاك نظرت للخيام المحترقة وأوانى الطبخ المدهوسة، والملابس المتناثرة حولى وحمدت الله على سلامتى.

سرنا حتى مقهى "سليم"، وشاهدت كليمه الأخضر، وبعض أكوابه وزجاجاته الفارغة فى أحد الأركان، وأمر الضباط جنوده بإشعال النار فى الكوخ الوحيد وسط الرمال الموحشة، نظروا يمينًا وشمالاً، ولم يعثروا على أثر للأعرابى، فنفذوا الأوامر بهدوء.

" **محبوب** "

عندما أغوانى صديقى للهروب إلى بلاد الثلج، اجتزنا مع عشرة صبية حدود بلدان كثيرة، ورشونا الجنود، ونمنا وسط الأحراش، وبين الهضاب، حتى وصلنا إلى شاطئ البحر الوسيع.

لكن صاحب السفينة وشى بهروبنا للسلطات، بعد عجزنا عن تدبير ثمن نقلنا، كان عمرى وقتها يزيد على عشرة أعوام، وتمكنت، رغم قلة خبرتى من المقاومة والتحمل، وسرت أيامًا بالصحراء بعيدًا عن عساكر الحدود، حتى وصلت إلى الواحة.

استقبلنى الشيخ بحب، وجلس معى يعلمنى معنى الحروف والأشياء وصنع القهوة والشاى، وقال: "أنت السلطان الذى يخدم على مجلسنا يا محبوب"، لم يفرق بينى وبين أبناء النجع بسبب لونى، لكنه رفض خروجى معهم فى غاراتهم، أو امتطاء خيولهم.

فى ليلة غابرة، أتذكر تفاصيلها، أعطانى كوبًا مملوءًا بشراب أزرق وطلب منى تجرعه مرة واحدة.

وحين غبت عن الوعى، وأحسست بأننى ميت، قام بخصى بويضاتى حتى لا أتمكن من مضاجعة نساء النجع، ورغم عجزى، لكن "عيده" وفتيات النجع يأتين بأحلامى ويعاشروننى، حزنت كثيرًا على ما فعله شيخ القبيلة بذكرى، لكننى تلمست له العذر، فكيف لعبد أن يترك مطلوق العنان وسط الفاتنات؟

رضيت بحياتى وسط الصحراء ونسيت قريتى التى تحيط بالنهر، حين أتذكر وجه أمى أبكى فى صمت، كأنى أسمع نصائحها وهى تنهرنى كى لا أهجرها، لكن رؤية بلاد الثلج خلف البحار كانت كفيلة بفك القيود عن عقلى.

فصور النساء الشقراوات التى تنتظرنى على الشاطئ الآخر، ليدعكن جسدى فى الشامبو، ويعاشروننى على صوت الموسيقى، دفعونى فى ظهيرة يوم أسود للرحيل، تركت ديكى وقردتى، وغادرت القرية التى اعتزت بلون جلدى.

رغم قسوة الحياة فى الواحة وقبولى بدور السلطان المخصى الذى يعد الشاى للأعراب، لكن صوت فتاتى لم يفارق أعماقى ولازمنى فى رحلات النهر ونحن نصطاد الأسماك،.

فى الليلة الأخيرة، قابلتنى وبكت فى حضنى، قائلة: "لن تغادر يا حبيبي "، واعتقدت يومها بأننى سأنجو وأصل إلى الشاطئ الآخر، وأرسل لها لتأتى مع أمى إلى بلاد الثلج.

تمنيت كثيرًا العودة إلى قريتى، وسماع صوت هطول الأمطار فى الشوارع وعلى أسقف البيوت، آملاً فى قيادة الصبية مرة أخرى فى سروحات الغابة لاصطياد النمور.

كنت أكاد أجن بعض الأيام لحرمانى نسمة النهر، ورائحة الغابة، وأحيانًا كثيرة كنت أدخل خيمتى، وأعلق خرطومًا مملوءا بالمياه فى سقفها لينزل بمائه على جسدى لأحس برائحة المطر.

عزائى الوحيد هو تقبل رجال القبيلة لوجودى، وسماح الشيخ بجلوسى مع نسائهن والنوم وسطهن، وأنا أحكى لهن عن طعم الحب فى قريتى البعيدة، البكاء يملأ مقلتى وأنا أتلوى فى دمائى وسط المغارة، أتساءل بحزن: "أينقلونى إلى المستشفى أم يتركونى اموت كالكلب، لا لن أعجز عن المقاومة، سأوصل حياتى، فأينما سيحط جسدى سأنشر السعادة".

رغم فشل رحلتى وضياع أحلامى بالعودة إلى قريتى، لكنى أشعر بأن محبوبتى ما زالت تقف وحيدة على النهر تنتظر عودتى.

" مرثية "

بعد عودتى استقبلنى" سيسي " الضابط الذى حاكمنى، قائلاً: "يا خواف"، أمسك يدى برفق وسحبنى حتى حجرة العجوز، وغادر سعيدًا، انبرى العجوز، قائلاً: "هل تكفى قرصة أذنيك، أم تحتاج لقطع إحداهما، نحن لا نطلب منك الكثير، فقط عليك تسجيل كل همسة بأعماقك، ونحن سنتكفَّل بالباقى، هل تعتبر هذا عملاً مهينًا أو شاقًا؟!"

وعندما تحسس صمتى الطويل قال صارخًا: "سنجعلك تقبل برضائك أو رغمًا عنك".

فى تلك اللحظة، أشار إلى الحائط بيديه، فظهرت صورة ابنتى على الجدران عارية وحليقة الشعر، وقالت بهدوء، وهى تقترب منى ذاهلة: "انت مين؟"

خلعتُ ملابسى وجريت إلى الحائط لأدارى عورتها، فصرخت قائلة: "متقربش منى"، ونظرتْ بخوف ناحيتى، واستكملت: "أتريد اغتصابى وقتل زوجى يا مجنون؟"

عاد الحائط للونه الأسود، فانقضضت على العجوز لأقتله، فهرول رجاله بسحلى، وقال ببراءة، وهو يضع قدميه على رقبتى: "الآن تعلمت الدرس" واستكمل بفخر قائلاً: "قول ورايا يا حيوان : "أنا كلب".

فى تلك اللحظة لمح آثارًا إنسانية على وجهى، فتركنى وعاد إلى مكتبه، قائلاً بحرقة: "سترى بعينيك آثار قوتنا، ولن أُذكِّرك الآن بحكم الإعدام الذى نطق به لسان ضابطنا العادل".

استكمل مشيرًا إلى الحائط: "أحضروا فتاة المحل التى آوت جثته فى مدينة الشط"، ظهرت صورة فتاتى على الحائط، وهى تزحف راكعة، وأقدام العساكر تدهس جثتها، رشوا على أنفى سائلاً أبيض شفافًا، فعدت غير واعٍ بنفسى.

قال العجوز بشماتة: "خانتك مع النادل، وشاهدتها تنام تحت فخذيه، وتصرخ من اللذة".

أحسست بمشاعر فتاتى ترثى وجودى، وتحاورنا كمُحطَّمين، وسمعت صوتى وصوتها، يحاولان عبور الموت والعجز والمهانة.

كأن شخصًا آخر يسجل ما دار بين أرواحنا، فقلتُ لها بأسى: "أجرى وراء روحك لمعرفة خبايا رائحتك، محاولاً تفسير علاقاتك بالأوباش ".

همست نفسها المحطَّمة: "لا تستولِ على أركانى المهدمة، فأنت ظلال شمس لا تشرق".

رد عليها شخص يموت داخلى: "أحاول مساعدتك ومد يدى إلى قلبك، لتحسى بالشقوق والجسور التى ملأت أعماقى".

قالت كأنها فى نزاعها الأخير: "لا تحرق روحى، ولا ترينى قسوتك التى ترعرعت بين جدران قلبك".

صرخت بصوت عالٍ، قائلاً لوجهها الذى يملأ الحائط: "مدِّينى بالأمل لأحصل على رائحة حياتك ومعرفة سر ارتباطك بالخونة كى أموت مرفوع الرأس".

تضحك أو تبكى، لا أدرى، لكنى أحسها قوية ، وهى تهرب بعيدًا فى أركان الحائط، قائلة: "شبعت بالعيش يا كلب!"

شاهدت جنوده يجرون جثتها على الحائط أمامى، سلموا ليدى سكينًا، واعتقدو فى قيامى بتقطيع جثتها.

تلفَّتُ حولى، وألقيتُ سيفى بعيدًا، وخلعتُ ملابسى، وغطيتُ جثتها الملقاة على الجدران، فضحكوا واندهشوا لقرارى الذى يحمى امرأة عاينت بنفسى خيانتها.

عند ذلك أشار إلى الحائط مرة أخرى لتجرى عليه صورها، وشاهدت نفسى أقف مذهولاً بمدخل حجرتها، وهى نائمة مع "سمير" النادل الذى كان يمد الأجهزة بمعلومات عن تنظيمنا، راقبته بذهول، وهو يدعك نهديها ويركبها منتشيًا، وصارخًا فى عيونها بألفاظ مهينة، وحين شاهدتنى، وهى تحته قامت مفزوعة.

أغلق العجوز الشاشة، وأظلمت حوائط الجدران، وعندما شاهدنى أقف على نفس ثباتى قال بثقة: "يجب المحافظة على نور قلبه .. روحه ما زالت مملوءة بالإبداع والمراوغة".

فى هذا الوقت دخل الضابط " سيسي" ساحبًا أحد الأعراب فى يديه قائلاً: "أخيرًا وقع الغنتورى يا سيدى".

" غنتورى "

لا أحد ينازعنى فى مملكتى، حتى البدو يخافون منى؛ لأننى أسرق الأرواح فى خفة لا تعرفها الشياطين.

كونت عصابتى من المطاريد والمحكوم عليهم بالإعدام، نتخصص فى القتل والسلب والخطف، المغارات أوطاننا التى تخفينا عن أعين الجميع.

دائما أختفى مع المغاوير وسط الشقوق، وحين يضعف أحد رجالى ويتمنى العودة لحياة المدينة، أطلق الرصاص على جبينه، فالجميع يعرف سر سطوتى وجبروتى.

أنام بعيون مفتوحة، وأتشمم الخطر، وأتلاشى الدخول فى المعارك الخاسرة، ولا تقهرنى أصوات الدبابات أو الطائرات؛ لأن رائحة الموت لا تعرف أنفى، فى الأيام الأخيرة وبعد تصاعد الأحداث فى المدن، قامت فرقة عسكرية بالغدر بأحد رجالى، ولم يكفنى وقتها حرق معسكرهم ودباباتهم.

تطاولت عليهم وأرسلت للفضائيات شريطًا يكشف استكانتهم وضعفهم، وحين عقدوا العزم على مطاردتى، قتلت مائة ضابط وجندى دون أن يجرحوا طرفنا، ويسعدنى فى النهاية رضاؤهم بالقدر، فأنا الحاكم الحقيقى لجبل الحلال.

يحاولون تأليب البدو علينا، لكن الشيخ الحكيم يعرف قلوبنا التى لا تعرف الرحمة، فيتلافى الصدام معنا، ويوفر على نفسه وعلينا المعارك الخاسرة، لا نهاجم النجع مقابل تركهم مغارات الموت لرجالى.

أعداؤنا المشتركون هم العسكر الذين يعتقدون بأنهم أسياد هذه البلاد، نفاجئهم كل عدة شهور بعملية قتل لجنودهم وضباطهم حتى لا ينسوا أنفسهم.

وحين عرفت، من "سليم"، بعودة دباباتهم، غادرت مع رجالى إلى جبل الحلال الذى لا يعرف أنفاقه إلا المغاوير.

وعندما تساءلت مع إخوانى عن سر هجومهم على النجع ولم نجد إجابة، راقبنا غارتهم، وشاهدناهم يعودون برجل عاجز، فاستغربنا مطاردتهم، إذ كيف لمثل هذا الضعيف أن يؤلب عليه كل تلك الأجهزة.

يمكننى خطفه منهم، لكن وجهه غير المألوف أخافنى، كأنه فأل شر، تركتهم يستمتعون بفريستهم، وأشعلت الحريق فى بقايا معسكرهم، وغادرنا مرة أخرى لبطن الجبل.

فاجأونا وأطلقوا الغاز على إخوانى، فهرب معظمهم بعد ارتداء الواقيات، لكن الرصاصة الغادرة التى دخلت فى قدمى أعجزتنى عن الحركة، فقبضوا علىّ وفاوضونى، ووافقت على شروطهم لأنجو من وجههم.

حينما أعود سأقتل "سليم"، وأضع بدلاً منه أحد رجالى؛ لأن الخائن بلغ الشيخ بحضور الضباط ولم يعطنى الإشارة إلا بعد فوات الأوان.

الشىء الغريب أن العجوز لم يطلب منى شيئًا سوى خرائط وأنفاق جبل الحلال، جلس معى بمشاركة بعض الضباط يرسمون على الأوراق فتحات الجبل ومدقاته، وحين ذكرت لهم كل ما أعرفه عن الأنفاق، قرروا تركى، واتفقوا معى على زيارات وعمليات قتل وحرق أنفذها لصالحهم فى الأحياء.

نعرف أن اتفاقنا لا تحكمه إلا المصلحة، فمقابل حياتى هو " الغدر"الذي لا اعرف سواه، حين نظرت فى عيونهم فاقدًا الثقة فى نيتهم، وتحسست أقدامى، وأنا أفتح باب السيارة التى سأعود بها للجبل، فهم العجوز رسالتى، فقال ضاحكًا: "لن نضحى بك الآن يا غنتورى، فنحن نحتاج لحياتك يا بطل".

" **سامحنى** "

بعد دهسهم أعماقى ومشاهدة ابنتى وفتاتى مسحولين كالبغايا على جدران الحوائط أغلقوا الحجرة وغادروا فى صمت، النوم يخطف عيونى، ويهيم بروحى وسط الجبانات التى تنضح جثثها بالعفن، الكلاب والقطط تجرى بين القبور وتشمشم بقايا الرمم، الغربان والنسور تحلق فوق رفات الموتى لتفتك بالمتبقى منهم.

من بعيد شاهدت أبى ينزل من فوق حمارته البيضاء، ويأتى مسرعًا فى اتجاهى ليحملنى وراءه متوجهاً إلى سوق المواشى، أشترى العجوة والجوافة ووضعهم فى الخُرْج، ونظر فى عيونى بحب وناولنى برتقالة قائلاً: "دوقها يا وله".

وحين عدنا للمنزل جرت أمى فى استقبالى، وأخذتنى فى أحضانها، قائلة: "أنا مش زعلانة منك، ده انت كويس يا ضنايا".

سحبتنى من يدى ومرت من ردهة البيت الطويلة إلى حقل واسع، مملوء بالخضراوات والزهور، قائلة: "اسرح بخيرك واحصد بعملك"، استكملت روعتها، وهى تودعنى بذراعيها قائلة: "أنا لسه ممتش يا عينى، ده أنا عاملة ميتة، علشان أشوف غلاوتى عندك".

تحسستُ يديها الرقيقتين، فسَرَت الحياة بقلبى، و سمعت عويلاً وصراخًا بالشارع، فتصورت أن مشاجرة وقعت بين أولاد الأرابطى وعائلة الحناكلة، وتخيلت الدم والسواطير وهى تنزل بكل قوتها على رؤوس شبابهم، ونسائهم العاريات يستغثن بالخَلْق، لكنى فوجئت بموكب مهيب تتقدمه خشبة الميتين، نظرتْ أمى مبتسمة من الخشبة دون أن يراها أحد، قائلة لروحى: "مع السلامة"، ردد الناس المنشغلون بالحزن والدموع بصوت جماعى: "لا إله إلا الله".

ومع رحيل الجنازة، شاهدت الجزمجى والخياط والمكوجى وصانع المحاريث والبقال والسباك والبنا والحداد يجرون العمارات ليضعوها فوق الحقل الذى وهبته لى، وبعد ذلك جلبوا الأفندية والبائعين ليملأوا المحال والعيادات والمقاهى والمطاعم ببضائعهم.

بتلك اللحظة شاهدت فتاتى تقترب منى مرفوعة الرأس تبغى السماح، سمعتها تحكى مع ابنتى قائلة: "ماذا فعلت ليهرب مكسور الجناح، كان يعلم بتهديدات النادل المتكررة بإبلاغ البوليس عن اجتماعات أصدقائه وقتله، اضطررت لمعاشرته لأحميه من غدر الكلب".

ملأت الدموع وجهها، وهى تستكمل لتبرئ نفسها قائلة: "لم أمد سمير بأى معلومات عن التنظيم، ضللته ولاوعته وعرفت تحركات الأجهزة وغررت بهم كى أحمى زملائى، وكان الثمن هو ترك فرجى للكلب ليشم فيه، وحين شاهدنى بجواره جريت وراءه لأبلغه بالحقيقة، لكنه تركنى وغادر حياتى للأبد، عاقبت نفسى وتركت اللوكاندة وهربت من وجه الجميع"، فجأة نظرت إلى وجهى قائلة برجاء: "أرجوك سامحنى".

همست عدة نساء دخلن الحجرة وحملونى بنومى إلى حمامهن، وقمن بغسل جسدى بسائل أبيض لإزالة الوجع والألم، أنزلونى بحوض كبير وغطسن رأسى فى قاعه كأنهن يعمدوننى.

الغريب أننى شاهدت " ننيس " المذيعة ذات الشعر المستعار تقف خلف ميكروفونها مبتهجة بعودتى وترشد المصورين ليلتقطوا صورهم بخلفية تظهر حكمتى فى الحمام، اقتربت قائلة: "حمدًا لله على سلامتك يا ريس"، لم أفهم شيئًا، لكنهم عاملونى جميعًا برفق، كأننى إله متوج.

وحين دخل عامل المساج ليعيد تدفق الدم فى عروقى، شاهدته ينهر المذيعة دون اعتبار لمجدها فى الفضائيات قائلاً: "اخرجى دلوقت أحسن لك يا ننيس".

فى هذا الوقت نظرت لعيونها محاولاً اكتشاف سر أنوثتها، لم أشعر بشىء، فقط شعرت بظل امرأة جافة تمسك بالميكروفون وتلون وجهها بخطوط حمراء وزرقاء غير عابئة بحواسى، تذكرت نهود أخت زوجتى وتنورة "صابحة" داعرة الميدان، وقلت لنفسى: "لا وجه للمقارنة".

" ننيس "

توسطت ماما عند أحد أقاربها لألتحق بالعمل فى الإذاعة، ولم تمر عدة شهور حتى تزوجت من صحفى، حلم مثلى بالوصول للمجد، واندهشت من الحياة التى ابتسمت فجأة لتحقيق حلمى بالميكروفون الذى يتراقص بين يدى، وأنا أردد بثقة: "آنساتى سيداتى سادتى".

أفنيت حياتى وسط المعدين والمصورين والمخرجين لأنال الشهرة التى أستحقها، سجلت مئات الأحاديث مع المشاهير والسياسيين لأجعل حياة الناس مملوءة بالتشويق.

ورغم ذلك يحقد زملائى على أناقتى، وأجرى العالى غير مقدرين مصاريفى الباهظة على ملابسى ومكياجى لأظهر دائمًا فى أوج نضارتى.

لم يرأفوا لحالى لعدم استمتاعى بجو المودة الذى يرفرف على أسرتى، لدرجة أن ماما ماتت محرومة من وجودى بجوارها، فقط لم يكن إلا الحقد على علاقاتى ومكافآتى وثروتى التى تعتبر نقطة فى بحر مليارات أصحاب الحظوة.

إذ ماذا تعنى عدة شاليهات وقصرين وخمس سيارات أستمتع فيها مع أقرانى لأخفف عن نفسى قسوة الوحدة وظروف عملى الشاق أمام الفنادق، وآبار الغاز والبترول التى يمتلكها أبناء السلطان.

حين تمرد الرعاع وهددوا الجميع، لم أخف أو أجلس بمنزلى أو أهاجر إلى الخارج، كما فعل الكثيرون، وقررت المواجهة وأجريت الأحاديث والتحقيقات لإعلام الناس بالحقيقة. واظبت على علاقاتى بالأجهزة لنشر كل كبيرة وصغيرة كى ينعم أهلى بالاستقرار.

عانيت فى حياتى بسبب علاقات زوجى بالخادمات، وفشل ابنى الوحيد فى التعليم، واضطراره فى النهاية للهجرة لبدء حياته الجديدة.

حُرمت من التمتع بمشاعرى لأجل الوطن الذى أعتبره أهم من حياتى، أرجوكم لا تسألونى عن رأيى الشخصى في شخصية الرئيس المرتقب؛ لأننى أعطف عليه نتيجة جهوده الجبارة فى هضم كل مناحى حياتنا.

يفاجئنى فى أحاديثه بخروجه عن النص، وأحاول جاهدة إعادة صياغة كلامه ليؤدى المعنى الذى ترغب الأجهزة فى توصيله.

فى الأيام الأخيرة أحس بأن الدنيا تغيرت، ورغم ذلك تسيطر على أعماقى الرغبة فى التقاعد، لكن مصلحة البلاد العليا تفرض علينا قتل الرغبات، وتأجيل الشهوات.

أعرف أن مشاعرى ماتت منذ سنين، فالأوامر وإرشادات الضباط الذين يعدون أحاديثى وتحقيقاتى، تلازمنى بأحلامى، لم يتبق فى أعماقى إلا صوت الحكمة التى تخرج من فم العجوز والسيسى كبير الضباط، نعم يعيشون مثلى محرومين من دفء الحياة التى يتمتع الجهلاء بنعيمها فى مقاهيهم ومع أصدقائهم، وبين أسرهم.

عند عودة الوئام سأهجر عملى وزوجى المخادع وأعيش باقى عمرى فى منتجع الجنة، أستمتع بدفء وأحضان الفتيان الأجانب، نعم أستحق العيش كأميرة بعد خدمتى سنوات طويلة، لا يهم ما سيقوله الحاقدون عنى، فالأجانب يكتمون الأسرار، ولا يمكن أن يكشفوا عن علاقاتى للصحافة.

نعم يحترمون خصوصيات الإنسان، لذلك سأرحل بعيدًا إلى مدنهم؛ لأسمع الموسيقى وأتجول فى محلاتهم الفخمة، إذ لا يهم وقتها أى شىء سوى المتعة.

" **مؤشر** "

دخل العجوز الحجرة وسط حراسه، قائلاً للمحيطين بجثتى بلهجة آمرة: "أمامكم ساعتان ليأكل، ويشرب ويُعالج ويرتدى أزهى الملابس".

طردت إحدى الفتيات المذيعة، وطاقمها وأخذونى إلى الحمام، ودعكن جسدى بليفة مية المحاياه، وأطلقن روائح حلمة الرغبة من حولى، مما أدى لتفتح جوارحى.

سقين روحى بماء الزهر والورد، وتجرعتُ حتى تفتَّحت مسام وجهى، وأحسست بعظامى تلتئم وجروح جسدى تطيب.

بعدها استلمنى المؤهلون، وقرأوا رسائل أعماقى، واطمأنوا على ردود أفعالى ونسيانى كل أحداث الماضى، ألبسونى بدلة تليق ببطل شعبى عائد لأرضه.

سلمونى للعجوز الذى قال بخبث فى عيونى: "أنت ثروة حقيقية، ولا يمكن أن يفعلها غيرك".

نقلونى فى طائرة إلى مبنى آخر، وأحاطنى رجال ونساء يتحدثون فى كل شىء، وفتحت وعائى لأستقبل المعلومات ببراءة، تحدثوا عن الأرض والزراعة والصيد وآبار النفط والغاز والصناعات والهواتف والكومبيوتر والجمارك والضرائب والصراعات القومية والدولية، وعلمت كل شىء عن ثروة بلادى.

سعد الجميع بإيماءة رأسى وابتساماتى المحايدة، دلالة على صحة رؤيتهم للتعايش والحب.

أيامًا كثيرة عشت فيها مع رجال أفذاذ ونساء متجبرات، يعلمون بكل ما يجرى فى القرى والمدن، ويدونون ملايين الأسماء على أجهزتهم، ويسجلون نبض الحياة فى ملفاتهم.

وبين الخرائط والزيارات الخاطفة لمناطق نزاع، ومقابلات سرية مع ممثلى دول سامية، وُلدتُ من جديد كبطل قومى، تم إعداده فى شهور.

وحين حانت لحظة خروجي وسط الملايين، أحاطوني بعشرات الضباط الذين ارتدوا ملابس مدنية، وسجلوا بأعماقي نبرة الصوت والكلمات التي سألقيها بدقة، ورتبوا التصفيق والهتاف وسط الجميع، لدرجة جعلت مخبأ أعماقي الذي لا يعرف أسرارَه أحدٌ يندهش من جبروتهم.

بعد الخطاب خطفوني سريعًا من على المنصة، وأنا ألوح بيدي للجماهير في حرارة، ودخلوا ممرًا طويلا ووضعوني على كرسي السيارة الخلفي؛ لتنطلق في شوارع نظيفة مملوءة بالورود حتى باب قصر كبير.

رافقتني امرأة لا يعرف قلبها الرحمة، وقالت بهدوء بعد دخولها معي حجرة واسعة: "سيدي حان وقت الراحة"، أخلعتني ملابسي، وتحسست جسدي، وأطلقت إشارة للسقف، فغردت العصافير واليمام بألحان دفأت روحي.

مددتني على سريري وتركتني، قائلة: "ليلة هانئة يا مولاي".

نمتُ بعمق بعد تشغيلها مؤشرين للأحلام بأعماقي؛ أرسل الأول: الإشارات لأجهزتهم، وطارتْ نصف روحي التابعة لهم، ووقفتْ أمام كاميرا فضائية مع المذيعة ذات الشعر المستعار لتعلن تطهير البلاد وإعدام الخونة.

في اللحظة نفسها تحرك المؤشر الآخر بداخلي، ليروي روحي برائحة من أحبهم، ضبطته، وتأكدت من صحة ذبذباته وأطلقته ليجوب الدنيا، باحثًا عن ابنتي وفتاتي، حينذاك شاهدت زوجتي، وأختها تصرخان في وجهي محاولين إعادتي إلى المنزل، رددت عليهما قائلاً: "دعوني أبحث عن خِلاَّني".

تركتهما وسرت نحو منزل مكون من طابق واحد، مقسوم من داخله إلى عدة أدوار، شاهدت النقاشين والسباكين والنجارين والمبلطين يعملون بشغف؛ لتجهيزه لفتاتي التي تنتظر عودتي.

فوجئت بجلوس زوجتى على كنبة قديمة بمدخله رافضة دخولى، لكن أختها خلعت ملابسها أمامنا وتحسست نهودها وأردافها الممتلئة، قائلة لزوجتى: "هيخش علىّ الليلة برضاكى أو غصب عنك".

حينذاك سحبتنى طفلة صغيرة بعيدًا عنهم، وأعطتنى سندويتش طعمية، وعادت بروحى إلى شوارع القرية، قائلة: "لا تعُد إليهما مرة أخرى".

شاهدت المدن تتحول من حولى لمنازل زجاجية، وتكشف خبايا كل شىء بداخلها، رأيت أجساد الرجال تجلس على كراسى الانتريهات صامتة كالتماثيل، والسيدات تتحرك كدُمى باحثات عن سر الحياة فى المطابخ.

فى تلك اللحظة سمعت الدق المتواصل للأجراس، وفوجئت بوجوه خدامى حول السرير يغردون ويغنون نشيد الصباح، وقالت المرأة منزوعة القلب، حين وجدتْ عيونى مفتوحة: "صباحًا كريمًا يا سيدى"، دخلت وراءهم الفتيات حاملات أجهزة ترميم المشاعر، ليعدن ترتيب أعماقى كى أستقبل وجوه الجماهير بأمل.

الشىء الغريب أننى رأيت وسط جمعهم " سعيد " السائق الخصوصى الذى رافقنى بمنتجع الجنة، ابتسم فى وجهى كأنه يعرفنى، لكننى طاردت طيفه من أعماقى وقلت لنفسى: "يخلق من الشبه أربعين".

القسم الخامس: غُمَّة

" **سعيد** "

فقدت القدرة على الصبر بسبب تصرفات الرئيس الذى يمشى كالبطة ويعوى كالكلب، ولا أدرى كيف أتواصل مع صمته، أقابله فى الصباح، وأبتسم فى وجهه وأنحنى قبالته، وأحس بأنه لا يرانى، ولولا عيونه المنطفئة لقلت إنه تعالى أولاد الأكابر.

حين وقع اليوم من فوق السلم، وهو ينظر إلى السقف، وجرينا جميعًا لإنقاذه، نظر فى عيونى مندهشًا وسألنى: "احنا فين"، أخذته فى حضنى قائلاً: "أنت فى قصرك يا مولاى"، بعدها حمله الأطباء ودخلوا حجرة العمليات ورمموا عظامه وطيبوا جروحه.

عندما اقترب فى اليوم التالى من السيارة الممتلئه بضباط المخابرات قلت له: "حمدا لله على السلامة يا ريس"، رمقنى بعيونه الحائرة، متسائلاً: "انت مين".

رددت بحب: "أنا سائقك الخصوصى يا سيدى"، لم يرد ونظر من الشباك المفتوح كأنه يتمنى الهروب من وجوهنا.

لا أدرى هل يعرف العاملون بالقصر حكاية تأهيله قبل تعيينه فى المنصب الرفيع، وهل فكر أحد فى معايير اختيارهم لرؤسائنا؟

تلك اللحظة قررت استعادة التمارين التى دربونى عليها قبل عملى بالقصر حتى لا يقتلونى: "لا تشعر لا تحس لا تفكر لا تتذكر إلا تعليماتنا".

لكن ذاكرتى تؤكد أننى رأيته بمنتجع الجنة، فحين طلبوا منى خدمته وتوفير كل شىء فى شقته، كنت أحس بأنه درويش، حتى إن المرشدين الذين عيّنوهم ليراقبوا حركاته داخل الشقة لم يشاهدوا شيئًا خلاف نومه واستحمامه، وكتبوا فى تقاريرهم التى قرأتها: "يدخل صامتًا وينام، ولم يفتح أى مرة الثلاجة أو التليفزيون أو التليفون".

عاش بالمنتجع كميت .. يدخل ويخرج ويذهب للاجتماعات دون شعور أحد بوجوده.

تصورت يومها أنه قريب أحد الضباط، وأنهم رغبوا فى علاجه بعد انطفاء روحه وموت عقله، يومها خفت على نفسى لتصورى بأن المنتجع يمكن أن يكون مصحة نفسية، لكنى قاومت وقلت لنفسى متذكرًا شعارات التدريب: "لا تفكر وإلا طالك العقاب والموت".

لا أعرف لماذا يذكرنى وجه هذا الرجل بحياتى قبل وظيفتى مع الأجهزة فى القصر، كنت أعود لمنزلى فى المساء، وأستمتع بجلسات المقهى وأزور إخوتى للاطمئنان عليهم، عندما كان يستدعينى جيرانى لتوصيل أحدهم إلى المطار أو المستشفى، كنت أشعر بالحب المتدفق من عيونهم وهم يضعون فى يدى النقود قائلين بود: "متشكرين يا عم سعيد".

منذ تسلمى الوظيفة والشقة التى انتقلت إليها مع أسرتى، واختفيت عن أهلى بسبب عملى السرى، لم يعرف أحد مكاننا.

أخبرنى اليوم العجوز الذى يجول ويصول فى القصر كالملك بجولة الرئيس، وأصدر أوامره كى لا أهتم بنظرات عيونه، فقط علىّ قيادة السيارة صامتًا، كأنهم ربطوا مشاعرى بأجهزتهم وشفروا روحى كى لا أغيب عن عيونهم.

حينما بلغونى بمسار الرحلة ودخل الرئيس كالتائه متسائلاً عن مكان الحمام؛ أشار العجوز فى وجهى ففهمت الرسالة وغادرت المكتب منتظرًا خروجه من بيت الراحة للبدء فى جولته المعتادة.

" جولة "

بعدما انتهوا من تجهيزى هذا الصباح، قلت لنفسى: "لا يهم أن تكون رئيسًا صامتًا، ما دام عندك مستشارون يفهمون فى كل شىء، لا يهم هويتهم أو انتماءاتهم، فالعلم والخبرة ليس لهما وطن".

أخذونى فى سيارة فخمة، واتجهوا إلى أحد المساجد المشهورة لأبارك بحضورى صلاة الجمعة، وقف الخطيب على المنبر منتظرًا أوامر الضباط للبدء فى الخطبة التى كتبتها الأجهزة.

ظل أكثر من ساعة يرطن ويعجن دون فهمى لنصائحه، وفى النهاية طلب من الحراس الذين يصلون معى رفع أياديهم للدعاء بحياة الرئيس وتوفيقه، بعد ذلك ركع عدة مرات، وانحنى بعد نهاية الصلاة مقبلاً يدى، وشكرنى خانعًا لمباركتى مسجده بأقدامى.

أبعده الحراس بالإشارات الواضحة، ولم تلتقط كاميرا المذيعة إلا نظراتى المتأملة، وخرجت من الجامع محاطًا بالحراس، بعدها أدخلونى السيارة، واتجهوا إلى الحى المراد زيارته.

سرنا فى شوارع المدينة النظيفة والخالية من الهمس حتى وصلنا إلى مبنى رئيس الأحياء الذى استقبلنى باحترام بالغ، شارحًا دوره فى الاستقرار، واضطراره بعض الأحيان لتوزيع المخدرات، واستخدام النساء كمطيَّة، ورفع السلاح فى وجه الخونة.

أنهى حديثه بالتزامه باتفاق التعايش، ثم نظر فى عيونى، قائلاً: "طىُّ صفحة الماضى ونسيان الغدر، ضرورة قومية يا سيدى".

تأملت عيونه ببراءة وأشرت على شقتى، قائلاً: "أين رب العائلة الذى يعيش فيها"، نظر إلى أحد أتباعه، فهرول صاعدًا، قائلاً فى خنوع: "أوامرك يا باشا؟"

عاد برجل ملتح، فقلت له بأدب: "أين زوجتك؟" فنادى من تحت البيت: "يا أنهار، هاتى أختك أزهار، وتعالوا".

سارت زوجتى بقميص نومها الأحمر بجوار أختها التى ارتدت جلبابًا أسود شفافًا، وتوقفتا أمام هامتى محنيات الرأس، وجه "ضيف" الذى أعرفه بأدب كلامه إلى وهو يطاطئ رأسه، قائلاً: " هم إرثى، وكل حياتى يا مولاى ".

تجاهلته وقلت للمرأة التى أعرفها: " أين ابنتك وابنك؟ "فردت بأسى من دون أن "يرف" لها جفن: "ماتوا فى المعارك".

ابتسم بتلك اللحظة ساعى المصنع بخبث وأخذها بحضنه ماسحًا دموعها، ثم جلسوا بجوار الحائط ينظرون للحراس المحيطين بجمعنا فى رعب، وعند ذلك أشار لهم جارى بالصعود، فجروا أقدامهم فى بطء ناحية المنزل كأنهم أسرى حرب.

وقتها أرسلت إشارتى للأجهزة بضرورة التخلص من رئيس الأحياء لخرقه الاتفاق، وإصداره الأوامر منفردًا للعصابات للاستيلاء على عائد الدعارة والسلاح.

ودعنى خانعًا، لكن أعماقى أكدت أنه تعرف على شخصيتى، فقلت له وأنا "أدارى" نصف وجهى الآخر: "العصابات تعمل من خلفك يا منسى".

ابتعدت السيارة عن الحى، وسارت متجهة إلى شوارع المدينة الخالية إلا من أصيص الورد والأشجار التى ملأت ميادينها، وحين توقف السائق أمام المصنع الذى آوانى بمخزنه، دخلتُ مباشرة إلى الرجل الذى يمتلك نصف الحى، قائلاً من دون مقدمات: "تجارتك ازدهرت، واتفاقنا لا يتم تنفيذه يا مدير".

رد مرعوبًا: "دفاترى وأوراقى سليمة يا سيدى، والضرائب أدفعها بالمليم وعمال مصانعى يشكرون الله لإعادتك السلام فى ربوع المنصورة".

سألته عن عامل المخزن الذى يحفظ الأرقام، فضحك بخبث قائلاً: " اختفى فى الهوجة يا مولاى"، هرول أحد زملائى إلى المخزن، وأحضر حقيبة متربة؛ فاستكمل صاحب المصنع ساخرًا: "هى كل ما تبقى من أثره".

أمرت أتباعى بحملها وإحضار الكلاب لمعرفة مكانه، ارتعب، قائلاً: "هل سمعت شيئًا يا سيدى"، رددت بسخرية: "تكفى تقارير الأجهزة عن فواتيرك يا عصام".

حينذاك؛ كوَّن أتباعى لجنة لحصد ثروته وأملاكه، وفى اليوم التالى طلبوا منه التبرع بنصف أمواله لخزينة الدولة الخاوية، فأصيب بصدمة، ونقل على أثرها للمستشفى. ، فاستولوا على نصف ثروته وتقاسموها كغنائم.

أخذونى فى المساء لألقى بوصاياى إلى شعبى، فاعتليت المنصة العالية ولوحت بيدى فى الشاشات، فهتفت الملايين بحياتى، حينذاك شعرت بثقل المهمة، وتذكرت وقتها حكمة ستى "عيوشة" التى شاهدت الراقصة اللعوب بفرح العمدة، وهى تخلع ملابسها وتتراقص كالقردة أكثر من ساعة، فانبرت متأسية لحالها، وهى تحرك فمها يمينًا وشمالاً، قائلة: "صحيح أكل العيش مُر يا ولاد".

جاءنى فى اليوم التالى "ريان" صاحب المحل الذى سرق أتباعه قميصى، متوسلاً زيارة مصنعه ومحاله، فأمرت محاسيبى بزيارة المنطقة التى يسيطر عليها، وبعد جولتى السريعة بمصانع المدينة، صمم ليرينى نموذجًا حقيقيًا للتعايش.

أخذنى إلى منزله، قائلاً: "نحن عائلة كبيرة نعمل فى الصناعة والزراعة والتجارة والخدمات، ومنزلنا يحتوى على زريبة للمواشى، ومصنعًا للألبان، وورشًا للملابس، ومحال للبيع، ومخازن لجمع كل شىء وفرزه، نحن عائلة متكاملة، لم يكن ينقصها إلا حمايتك".

تأملتُ زوجته التى امتطاها يومًا ما أمامى، وقلت مشيرًا إليها: "ابنتك جميلة يا برنس"، رد بخنوع قائلاً: " هذا كرم من سيدى"، لم يمتعض، وأنا أداعبها أمامه، حينذاك؛ لفتت أنظارى امرأة أخرى صاحبتنا فى جولتنا، وعندما نظرت بشبق ناحية قضيبى، سألته: "من هذه؟" رد باستكانة: "زوجتى الجديدة يا ريس".

اقتربت من المرأة نعم إنها داعرة الميدان، فقلت فى أذنها بحب: "أخيرًا ربنا قبل توبتك، ذهل الجميع من ملاحظاتى، وضحكوا فى رياء، نظرت المرأة إلى وجهى مندهشة وبادلتنى الإعجاب، قائلة: "هل تعرفنى ياجنرال؟" قلت بصوت خفيض فى أذنها: "خيمة الميدان تجمعنا يا مفضوحة".

امتلأ وجهها بالبهجة وتفتحت مشاعرها، وانطلقت جوارحها، وامتلأ جسدها بالحياة، وأحسست بفرجها ينفتح، وينغلق أمامى، واهتزت نهودها حالمة بدعك صدور الرجال العارية.

طلبت منى الانفراد لتقول السر الذى خبأته فى أعماقها طوال هذه السنين، وحين اختلت بى وعيونها مملوءة بالفجر قالت: "أحلم بليلة أقضيها كخادمة على سريرك يا مولاى"، فأمرتها فى الحال بالحضور غدًا لتبارك أرضية حجرتى الخاوية.

عند ذلك ودعتُ الرجل الملتحى، قائلاً: "امرأة واحدة تكفى يا ريان"، وسألته بتهكم: "ألم تراجع الاتفاق الذى وقَّعته لحماية حقوق النساء"، تنحنح بأدب: "سأطلقهن جميعًا يا سيدنا".

أعرف بأنه سيفعلها، لكن بيوت السر التى يديرها ستمده بالفتيات البكر، ليشبعوا رغبته فى الاستمتاع بفض غشائهن الرقيق.

غادرنا زريبته، وانطلقت السيارة على الكورنيش، وطلبتُ من السائق أن يتوقف، وسرت حتى السور الذى يفصل الأسفلت عن المياه، وأخذت نفسًا عميقًا روى أعماقى وحمى أسرارى، عدت إليهم، وأمرت السائق بالتوجه إلى الميناء، نظر السائق بدهشة إلى عيون الضباط، فأمروه بتلبية أوامرى.

فى تلك اللحظة؛ هرول رجال الأجهزة إلى الميناء، وجهزوا المقهى، ونظفوا المحطة من عمال الجمرك وأكوام الروث وشباك الصيادين ورائحة أسماكهم.

عندما وصلت إلى المكان؛ وجدته تحول إلى حديقة أشبه بالجنة، دخلت المقهى مباشرة وسألت النادل: "أنت من بَحَرِى يا جدع؟"

تأمل الرجل وجهى بدهشة، ولم ينطق، حاولت مداعبته فسألته عن أولاده وزوجته؛ وأمرت بغلق المحل الذى تحت شقته، فسقطت الأطباق التى كان يحملها على الأرض، وأحدث صوتًا أفزع حراسى، فقبضوا عليه لتجرؤه على فقد أعصابه أمام هيبة الزعيم، نظر الرجل إلى عيونى وبكى، قائلاً: "اغفر خطيئتى يا عالم الأسرار".

فى تلك اللحظة هرول الحراس من حولى، وتبادلوا مع الضباط الهمس، وقال كبيرهم: "حان الآن موعد رحيلك يا مولاى".

وقف الجميع فى صفين من حولى، تقدمهم الضابط الذى أشار لمذيعة الفضائيات لتقترب من وجهى، وهى تصف جولاتى فى المقاهى والمصانع.

اقتربت منى قائلة: "أرجوك كلمة واحدة على الهواء لشعبك الذى يعبدك، نظرة رضا لمن حولك يا موحد البلاد، وجالب الأمان والخير للأحياء"، قلت وأنا أضع قناعى الطيب على وجهى: "القناعة كنز لا يفنى".

استكملتُ على غير توقع منها كأننى ولى يخاطب مريديه، قائلاً: "اصعدوا فوق الجسور، واصلوا عملكم وسباحتكم للشاطئ، لا تستعجلو، فالضفاف تنتظركم، ستجدونى هناك أقف محملاً بالأحلام، سأوزعها عليكم بالعدل، لا تقنطوا من رحمتى، فأنا أحمل فى أعماقى كل الخير"، تركتها مذهولاً من صوتى، وتصفيق الجميع من حولى كأننى نبى منزه من الأخطاء.

غردت العصافير فوق رأسى، فصرخت المذيعة فى الكاميرا، قائلة: "سيداتى سادتى آنساتى، الآن تشاهدون المعجزة، فالحمام الذى يرفرف حول موكب الرئيس ينشر الخير والسلام فى أرجاء المحروسة"، سمعت صوت بعض الرواد قائلاً فى سخرية: "إنه بالفعل معجزة السماء".

عدنا للقصر وأحضر الحراس شيخًا عجوزًا محاطًا ببعض الصبية الملتحين قائلين: "سيلقنونك كل شىء عن دين الشعب"، انبروا سعداء بتعليمى طرق الوضوء، ومواقيت الصلاة وعدد ركعاتها وفروض الإيمان الخمسة.

انطلق الشيخ شارحًا الفرق بين شهر رمضان وشعبان ورجب، ومواعيد الحج والغاية من الصيام، وحين ضجَّ رأسى من المعلومات التى لا فرق بينها، صرخت فيهم مكتفيًا، فتنحنح الشيخ فى خوف قائلاً: "أنت سيدنا وتاج راسنا يا مولانا"، سحب صبيته قائلاً: "الرئيس يفهم مغزى الكتاب والأحاديث كالسلف الصالح يا بهايم".

" عصام "

بدأت طريقى عاملاً فى السوق، وفهمت علاقات التجار بالباعة، وحلمت بتكوين إمبراطورية، وضحيت بكل شىء لتحقيق حلمى.

عشت فترةً طويلةً أراقب ما يجرى على الأرصفة، وأسجل بعقلى أماكن المصانع وتاريخ أصحابها، وتركيبة التجار وأذواق المشترين، ولم يكن ينقصنى إلا المال لتحقيق المجد والثروة.

وفى ليلة غريبة قبض البوليس على عشرات الباعة بسبب مشاجرة لم أكن طرفًا فيها، وبعد حوار طويل مع رئيس المباحث، جندنى كمرشد سرى للسوق، كنت أستلم "الرشاوى" الشهرية من أصحاب المحال والتجار وأسلمها للقسم بعد خصم نصيبى.

أصبحت بين يوم وليلة همزة الوصل بين الأجهزة وأباطرة السوق، ونلت احترام الجميع، وفى الوقت نفسه زادت حصتى، أصبحت أملك ثروة يمكن أن أبدأ بها مشروع حياتى.

استأجرت ورشة، ومحلاً صغيرًا لبيع منتجاتى، وادخرت كل العائد لفتح مصنع كبير بالمدينة الصناعية، ولتغطية نشاطى المتضخم أسست شركة، وأدخلت بعض العمال العجائز كواجهة لنشاطى، وبدأت أراكم الملايين وراء الملايين؛ لأفتح بعد ذلك المصانع، واشترى المحال بأسماء وهمية.

عمل بمصانعى آلاف العمال، كنت أعرفهم بالواحد، ورغم ذلك ظللت فى محلى الصغير أتابع أعمالى حتى لا تفوح رائحة ثروتى.

لا أتذكر الآن أحدًا من أهلى، كلهم تركونى، ولم يعد لهم أثر، فى المرة الأخيرة التى شاهدت فيها أخى الوحيد، تبرأ منى، قائلاً: "أخوى عصام مات"، لم يعد بعقلى إلا الحسابات والأرقام، ورغم ذلك لم يرأف بحالى أحد، فمشكلات عمالى لا تنتهى، ومع ذلك تأخذ منى الأجهزة كل شهر إتاوة لمواصلة نشاطى.

أفتح بيوتًا كثيرة، وأعول أسرًا لا حصر لها، ومع ذلك يكرهنى العمال والباعة، رغم منِّى عليهم كل شهر بالقبض ليفتحوا بيوتهم.

لم أستمتع بحياتى كالآخرين، ومع ذلك عشت لحظات ممتعة بالمخزن، ترددت علىّ نساء كثيرات لمساعدتهن فى المعايش، أختلى بهن ويخلعن ملابسهن، وأتحسس نهودهن، وأنظر إلى أعضائهن بشبق، وأشعر بالماء الدافق يبلل بنطلونى.

ورغم ذلك لم أنس المرأة الفاجرة التى دخلت علىّ وطلبت منى اختيار قميص مناسب لجسدها المتفجر، أدخلتها المخزن وطردت المخزنجى، وبدلت أمامى أكثر من عشرة قمصان ومشدات للصدر وكلوتات شبيكة ومفتوحة، كنت أتحسس مؤخرتها ،وأعلق مشابك القمصان فوق كتفها كالمجنون، فتمسك قضيبى بميوعة، وتصرخ قائلة: " برّاحة شوية يا عصام، اهدى شوية يا راجل"، لم تكتف الفاجرة بفعصه، أخلعتنى ملابسى، وكادت أن تلتهمه، الشىء الذى يعذبنى أنها أخذت الأطقم العشرة عند رحيلها، ولم تدفع مليمًا واحدًا.

فى رحلتى الطويلة لم أبال بحال عمالى، فيكفينى حضورهم الصباحى كى يدور المكن، لكن صمت الرجل الذى عينته كمخزنجى كان يحيرنى، وجعلنى أحافظ عليه متجنبًا استفزازه، أيامًا طويلة قضاها معى وتحمل الكثير، ومع ذلك لم يصرخ أو يرفض أو يمتعض، كان باردًا لدرجة جعلتنى أخاف من نفسى فى وجوده.

أكثر ما يحزننى هذه الأيام هو عدم ثقة الضباط والعجوز فى إخلاصى وإمكانياتى، كنت أتوقع اختيارى رئيسًا للبلاد بدلاً من الرئيس الدلدول الذى عينوه بديلاً عنى، كان أملى أن أمد الجميع بالخير، خسرتنى هذه البلاد ولم يستفيدوا من خبراتى وتكوينى منفردًا أكبر امبراطورية للعمل.

تجاهلوا حياتى التى أفنيتها لتشغيل الآلاف كى يفتحوا بيوتهم، ووثقوا بشخص معتوه، أحضروه من مكان مجهول، وأجلسوه معنا فى اجتماعتهم ليتجسس على حياتنا وأسرارنا، وبعد فترة فوجئ الجميع باختياره رئيسًا، كأنهم ينتقمون منا ليعينوا شخصًا لا يعرف الفرق بين المسيحى والمسلم فى بلد يعد منارة للأديان.

الشىء الذى يدعوك للحزن هو حال الأجهزة التى تتحرك بإشارة منه، فيكفى أن ينظر إلى أحد الصناع أو التجار نظرة صامتة، ليفاجأ بعدها بكلاب الأجهزة يهرولون إلى الدفاتر ليستخرجوا الأوراق التى تدينه، فحين زار مصنعى واتهمنى ظلمًا بالجشع واستولى محاسيبه على نصف ثروتى، فقدت الوعى مدهوشًا من جنونهم.

استوعبت الصدمة، وتجاهلت غباءهم، وعدت لممارسة عملى مرة أخرى مقررًا مواصلة نجاحاتى كى أملك الدنيا بما فيها قصرهم المسحور، حين أنال مرادى سوف أخلعه هذا الرجل الشبيه بالخزنجى، وأعين بدلاً منه "ضيف" ساعى المصنع.

أعرف أن هذا الحلم صعب المنال، لكن ما باليد حيلة؛ فكيف آمن شرهم فى المرة القادمة، فيمكنهم القبض علىّ وإيداعى السجن ومصادرة كل أموالى.

سأتدبر حالى وأتصل بالعجوز لأبلغه بجنون الرئيس، سأشرح خطتى للاستيلاء على السلطة، أو وقف تهديدى، وضمان عدم الاستيلاء على شقا العمر.

وفى حالة رفضه؛ سأستعين ب "سيسى"، كبير الضباط، فهو وطنى مثلى، ولا يرضى بخرق القانون، أعرف أن هذا الحلم لن يقف أمامه إلا غريمى الشيخ "ريان" صاحب المحال والأراضى والعمائر، ومصانع تحت السلم.

فالمرشدون الذين يعملون معه يبلغوننى باستيائه من عبث الرئيس ورجاله، ويستعد هو الآخر بالسلاح والرجال ليعين "بلبل" كلبه الواشى كرئيس للجمهورية بدلاً من هذا المخبول.

لن أقف مكتوف الأيدى أمام الجنون الذى طال شعب المحروسة، من الغد سأتصل بمغاوير الجبل وأقابل "الغنتورى" ليحرق حى "ريان" بمن فيه؛ كى لا يبقى إلا رجلى الذى أعده منذ سنين لتولى هذه المهمة، ومع ذلك سأظل واضعًا خطتى وأسرارى بأعماقى حتى أقابل العجوز فى منتجع الجنة.

" خيال "

رحل الشيخ وفرقته من غرفتى وحاولت النوم كى أستريح من التعب ووجع القلب الذى أبتليت به ، لكنى قلبى أنطفئ، وروحى جفت، وبحثت فى أعماقى عن نسمة تعيدنى للحياة لكن لم يعد فى أعماقى سوى ذبذبة واحدة تعرفها جروحى.

كأنى جنى أو عفريت، فتحتُ الباب وسرتُ بالردهة الواسعة، وخرجتُ من الممرات الطويلة دون شعور أحد بوجودى، وحين وجدت أبواب القصر مغلقة، سرت بجوار السور العالى، وتسلقتُ شجرة وارفة بجواره، ومن فوقها رميت نفسى فى مياه البحر المحيطة بأسواره.

سبحت فترة طويلة من دون إحساس بالجوع أو العطش، لم يكن حولى سوى المياه الصافية والأسماك التى تداعب جسدى، وقفتُ بأقدامى على المياه، ونمتُ على ظهرى وبطنى، وظهرت السماء العالية من فوقى كمظلة تحمينى.

سمعت صوت رجل طيب، قائلاً برقة: "فى قلب المياه أمل لا يمكن اكتشافه إلا إذا واصلت السباحة"، اختفى وسط السحب التى ظهرت فوقى وسط السماء كلوحة مملوءة بالصبية الذين يجرون وراء بعضهم بعد حرقهم أجران القمح، أحاطهم الفلاحون المندهشون من تحول قمحهم إلى هشيم، وابتسموا قائلين: "سنعاود زرع الأرض مرة أخرى بالقمح"، وصمموا على ملء الدنيا بالخير.

المياه تلاطمنى، وأنا أشاهد السحب الداكنة تتحول إلى لوحة أخرى، كأنها خرابة لحى أسود ممتلئ بالباعة الذين تنضح وجوههم بالبؤس، وحين أحسوا بالجوع جلسوا أمام الجوامع، واتفقوا على الدعاء للسماء، علّها تمطر أملاً.

أحس بخور قوتى وسط الأمواج التى تتقذفنى بعيدًا، ويأخذ النوم روحى إلى عوالم أخرى، لكن ضفة الشاطئ التى ظهرت أمامى أعادتنى إلى يقظتى.

قلت لنفسى: "مادمت قد دخلت كل هذه المسافة وحدك، فيمكنك العودة سالمًا".

شققت بيدى الأمواج الهادرة، وسبحت كأنى غواص البحر وقبطانه، وأمسكت بسمكة صغيرة وأكلتها بشوكها، فرمتها تحت لسانى ودهست خياشيمها بضروسى، وبلعتها كتمساح.

السمك يهرب خائفًا، وأنا أواصل السباحة، ملتهمًا كل ما تلتقطه يداى، تجرعت المياه المالحة، وتبولت وتبرزت واستحممت من دون أن تشم أنفى رائحة العفن.

شاهدت أضواء الشاطئ البعيدة ولمحت سارى المراكب يظهر ويختفى، وجدفتُ بيدى للنجاة من الطوفان، سمعت أصواتهم تأتى من الأعماق، وتخيلت اقتراب ملايين الوجوه الصارخة بمواجهتى، كأنها ترفض وصولى إلى الشاطئ، احتشدوا بعيون مملوءة بالقسوة فوق ربوة عالية محاطة بأسوار وأسلاك، وهتفوا كى لا أعود أبدًا إلى حياتهم.

تجمعوا فى غضب ونظروا ناحية البحر فى انتظار غرقى، ظللتُ ساعاتٍ طويلة أسبح حول السور، وأراقب جباههم المشقوقة، وحين تحركوا فى خطوة واحدة، وألقوا بالحجارة فى البحر آملين قتلى، سبحت مبتعدًا عن غلهم.

جلست على صخرة عالية، ممسكًا بيدى سمكة صغيرة وتناولتها فى برود، وحين نظرت إلى السور الذى يعوقنى عن الدخول وسط جمعهم، قلت لنفسى: "مكانى بالبحر وحيدًا أفضل من حياتى بينهم".

فى تلك اللحظة اقتربت غواصة الرئاسة من الصخرة، ونزل حراسهم مهرولين ناحية جثتى والتقطونى فى خفة وعادوا إلى القصر.

استقبلنى الضباط وعاتبونى لخروجى أثناء تناولهم غذائهم، وانبرى العجوز قائلاً: "قلدناك أعلى المناصب، ألا تدرك هالة المنصب الرفيع؟!"

تداخلت ذبذبات روحى وخرجت من أعماقى موسيقى هائجة لشخصيات غريبة، عشتها خلال رحلتى، شاهدوا شخصًا آخر لم يعرفوه، مزقتُ ملابسى وغيرتُ ملامح وجهى، وصرخت بأعلى صوتى: " جاي ، ارحمونى".

لم يتمكن الحراس من وقف نوبة جنونى، كأنى روح ملبوسة بالقوة، طرتُ من وسطهم ودخلت حجرتى كالمجنون.

دخل كبير الأطباء ورائى وأمر بعض حراسه بتقييدى وأعطائى حقنة كبيرة، ولم يعبأ بصراخى، أصيب قلبى بالتوقف وأحسست بفقدان وعى فنمت على سريرى فاقدًا الذاكرة، فى هذه الليلة طارت روحى فوق جسر طويل حتى وصلت إلى ريف مترامٍ، وحين ظهرت حقوله الخضراء من بعيد كأنها الجنة، شاهدت الفلاحين مصلوبين كأنهم تماثيل.

حتى الماء والزرع أصيبا بالتيبس، وأحسست كأن القرى جداريات كبيرة قام بتشييدها آلاف البنائين على مر العصور.

نزلت من فوق الجسر إلى شوارع وحارات غريبة، وسرتُ بين دروبها حتى حلت العتمة، فنمت مكانى غير عابئ بالقصر والضفاف، كأن روحى تصعد فى أسانسير طويل متجه إلى مدينة ضخمة تزيد أحياءها على ألف حى.

وحينما توقف وحاولت فتح بابه، حال جيرانى بأجسادهم وملابسهم السوداء دون خروجى، وفوجئت بجارتى "سيده" التى ماتت عشقًا فى رائحة ملابسى تصرخ قائلة: "كيف هانت عليك العشرة وتركى وحيده يا غادر؟!"

خلعتْ ملابسها أمامهم، واقتربت فى دلال من جسدى، فوضعتُ أطراف أصابعى بين خصلات شعرها لأهدئ جنونها، قائلاً برقة: "اعقلى يا "سيده"، وعندما حاولت الجارة أن تغتصبنى أمامهم، ابتعدت عنها محاولاً إيجاد طريقة للخروج من الأسانسير.

فجأة دخل ثلاثة كلاب سود من باب الأسانسير محاولين التهامى، فدرت حول نفسى باحثًا عن عصا أو سكين لأقتلهم، وظهرت ابنتى وبائع البطاطا وأخى، يحاولون طرد الكلاب لأنجو بروحى.

وحين شعرت بخوفهم من الزبد الذى يسيل بين فكاك الكلاب، أمسكت سكينًا، وواجهتهم، وقطعت رقبة الأول، فانزوى الكلبان الآخران فى الركن، استعدادًا للانقضاض على قلبى.

فتحتُ بأحدى يدى باب الأسانسير المغلق، ورفعت بالأخرى السكين فى مواجهة الكلبين، وقلت لهم: "مروا بسلام".

فى هذا الوقت؛ أيقظتنى المرأة التى تتدعى خدمتى، قائلة: "اليوم عيد المسيحيين يا مولاى، ويجب مرافقة شيخ الأزهر لزيارة البابا"، حملونى بملابس الحمام إلى السيارة وألبسونى بداخلها بدلة تليق بالاحتفال المهيب وذهبوا إلى الكنيسة.

استقبلنى الأساقفة والقساوسة ونظروا، فى عيونى ودعوا لى بالشفاء والراحة، وحين سمعت دق الأجراس معلنًا بدء الترانيم والاحتفال، صعدت إلى كرسى البابوية لأبارك النصارى بعيد الفصح، وقرأت عليهم خطاب الوحدة الوطنية الذى أعده الضباط والعجوز، وعندما انتهيت من خطبتى صفق الحاضرون مندهشين من فصاحتى، وحينذاك أمر الحراس بتوديعى ومغادرتى

للقاعة، كان المشهد مهيبًا فلوحت بذراعى وأصابعي الخمسة، دلالة على المحبة ودعمًا للنسيج الواحد الذى يسرى فى دمائنا.

" سيده "

يغيب زوجى عن البيت ساعات النهار الطويلة، ويأتى آخر الليل مخمورًا لينام، ويخرج فى الصباح دون النظر فى وجهى ليركب سيارته ساعيًا وراء رزقه.

خلال العمر الطويل تفانيت فى تنظيف البيت وغسل الملابس وتجهيز الطعام لأبنائى الخمسة، وعندما وقفوا على أقدامهم ونبتت شواربهم خطفتهم الشوارع، وتزوجوا فى شقق بعيدة عن الحى وامتهنوا وظيفة والدهم الذى، أصبح ظهره محنيًا، ويحتاج لتمارين طويلة ليتمكن من صلب طوله.

لم يحدثنى أبدا زوجى فى نوع الطعام الذى أقوم بطهيه أو الملابس التى أرتديها، ولم يذهب معى لزيارة أولياء الله أو أحد من أهله، حتى أخى، وأختى انشغلا بحياتهما، ولم يعد فى ذاكرتى أثر لصوتهما أو نظرات عيونهما.

الشيء الوحيد الذى خفف عنى كل هذا العمر هو صوت جيرانى الذى يصلنى من مطبخى المطل على شباك المنور، أعرف تاريخ حياتهم، وعلاقاتهم، وطرق عيشتهم وطرائف مشاجراتهم.

كنت أندهش دومًا لهذا الرجل الذى لم اسمع صوته أبدًا وترك زوجته وأختها تصرخان فى وجهه دون أن يرد عليهما.

تجاهل حذر زوجته من "ضيف" زميله بالعمل الذى يدخل شقته وينفرد بأختها فى حجرتها، ورغم ذلك لم يرفع عليهما سكينًا أو يصرخ طالبًا النجدة أو مساعدة الجيران.

أشفقت عليه وراقبت دخوله وخروجه الصامت باندهاش، وفى يوم لم تنسه ذاكرتى، وبعد خروج زوجى فى الصباح، ارتديت عبايتى السوداء، ونزلت السوق لاشترى الخضر، وحين قابلته فى الحارة قلت له دون تردد: "صباح الخير"، نظر إلى عيونى، ورد سلامى، فطلبت منه الصعود لشقتى ليعاين الحمام الذى يسرسب المياه من حوائط الأسقف المشقوقة.

سألته ، وأنا أسحبه ورائى على السلم: "ألست جارنا الذى يخاف مثلى على سلامة الجدران"، أغلقت باب الشقة وخلعت عبايتى، واقتربت منه غير معنية بزوجته أو أختها، وقلت بصبر امرأة لم تشاهد مياه البحر فى حياتها: "اسمى "سيده" وعايزاك دلوقت".

لم أهتم بدقات قلبه أو دفء عيونه، وواصلت جنونى، تحسست قضيبه ونزعت ملابسه، ليظهر أمامى عاريًا كجذع شجرة، حينذاك؛ تحركت يداه وفكت بهدوء الطرحة من فوق رأسى وأدخل أطراف أصابعه بين خصلات شعرى، فامتلأت عروقى بالدم، ولم أتمالك نفسى، وهو يرفعنى بين يديه، ويمتصنى على السرير كإسفنجة.

لا يمكن نسيان لمسة يديه الباحثة عن روحى بين حلمات نهودى، وحين برك على جسدى وغرس قضيبه فى فرجى، أحسست بأنه يأخذ بثأره من الدنيا، ولولا صراخ الأذان لكنت قضيت فى أحضانه اللحظات الباقية من عمرى، قمت من تحته باكية من الفرحة، وأنا أردد بسخرية: " انزل دوغرى قبل ما جوزى يرجع".

اعتبرت زيارته المتكررة لمنزلى الوفاءَ الوحيد الذى قدمته الدنيا لصبرى، كنت أرتب حضوره السرى لشقتى وأمسح بلاطها مبتهجة وأنظف جسدى كالعروسة، وأنتظره فى الصباح ليشفى غليلى، وظلت علاقتنا سنوات طويلة من دون سماع أحد جيرانى همس تأوهاتنا.

كان صمته الدائم وعيونه المفتوحة طوال معاشرتى دليلاً على تفوقه عن باقى البشر الذين عرفتهم، وحين حرمت من هذه اللحظات سألت نفسى ببلاهة: "أيمكننى معاشرة شخص كل هذه السنين دون سماع صوته؟"

فى الليلة الأخيرة التى تكاتف أهل الحى عليه ليطردوه من شقته، كنت أقف فى البلكونة وأشاهدهم يرفعون جثته إلى سيارة البوليس، وأتعجب من نظراته الصامتة لعيونى، كأنه لا يعرفنى.

" **خرابة** "

وجدت القصر خاليًا، لا خدم أو حرس، فترجلت بملابسى الداخلية، حتى وصلت إلى بواباته، وعندما شاهدت جنديًا يقف مغشيًا على نفسه سألته بهدوء: "فين أصحاب القصر يا دفعة؟"

رد متسائلاً ببلاهة: "النهاردة إيه فى الأيام يا عم الحاج؟" وحين لم أرد استكمل قائلاً: "اصحى يا بابا إحنا فى أجازة العيد".

خرجت من البوابة للشوارع الجانبية، قائلاً لنفسى: "سأرتاح من أصواتهم ووجوههم الناعمة".

سرتُ "فترة طويلة" غير عابئ بالنظرات المندهشة من ملابسى، وفى أثناء سيرى أعطانى بائع متجول كوبًا مملوءًا بالترمس قائلاً: "ادعيلنا يا مولانا"، ونظر آخر إلى ملابسى بأسى ووضع بعض نقوده فى يدى.

استكملت سيرى غير عابئ بنظرات الجميع حتى وصلت إلى مكان محاط بالأسوار ومملوء ببقايا الطعام ولعب الأطفال، وجثث الطيور الميتة؛ حينذاك عاد النبض الي قلبى وأنا أنزوى بأركانه قائلاً لنفسى: "يمكنه أن يكون ملاذى الأخير".

تمددت على الأرض، وغطَّت عينى فى نوبة نوم عميقة، فى تلك الليلة حضروا جميعًا فى باص يمتلئ بالبلالين ونزلوا مبتهجين وهم يرتدون ملابس العيد يتقدمهم العجوز والضباط والمذيعة، وحين توقفوا أمامى قالوا بكل الشماتة: "لماذا هربت ؟"

أجبتهم بحب: "أين تذهبون بالباص؟" ردوا بحقد: "للشاطئ"، بحثت بينهم عن وجه ابنتى أو أخى أو بائع البطاطا أو فتاتى، ففهموا سر عيونى، وردوا قائلين: "حولناهم جميعًا لتماثيل تجوب الشوارع والأحياء بحثًا عن الرزق"، فقلت لهم: "وماذا تكسبون من وراء ذلك؟"

تركونى ساخرين وضحكوا فى صوت جماعى، قائلين: " تأتى الحكمة من أفواه المجانين! "

فى تلك اللحظة سحبتنى يدٌ حنونة لشخص يعرفنى بعيدًا عنهم، وسمعت صوته، قائلاً: "لماذا يأتون دائمًا بأحلامك؟" رددت عليه كأنى "دوقة" تصرخ وسط الفراغ: "قدرى"، فعاود سؤالى

عن حياتى ومصيرى، فتوسلته أن يحدثنى عن المخرج والنجاة، فقال بسلام: "سجل حكايتك من دون خوف".

رددت بذهول: "كيف؟" قال بوجه مملوء بالأمل: "الأوراق تملأ الخرابة، يمكنك ملؤها بالكتابة من دون أن يراك أو يشك أحد فى سلامة عقلك".

رغم أننى لا زلت فى الحلم؛ لكن الخرابة تحولت من حولى إلى بحر كبير، فسبحت وحدى ضد التيار ودخلت أعماقَه غير عابئ بالأمواج، وشاهدت الكنوز المسحورة والبيوت السرية التى لم تدخلها أى روح، فقط فراغ أبيض زاهٍ لم يطؤه عقل إنسان.

قلت لنفسى: "سوف أنام وسط هذه الحجرات".

رد الصوت قائلاً: "نعم يمكنك أن تحيا وتموت هنا، لكن لا يمكن لجسدك الاختفاء بعيدًا عن أنظارهم، ووضع فمه على أذنى حتى لا يسمعنا أحد، قائلاً: "خلاصك فى المدينة وسط الغرقى".

تجاهل أصوات السمك وشجاراتهم، واستكمل قائلاً: "رحيلك الدائم ليس حلاً، مرسى الأحلام والميناء بداخلك"، رددت مستاءً على همسه: "لكنهم يعرفون سر رحلتى".

عاتبنى والدموع تملأ عينيه، قائلاً: "فعلت الكثير من أجلك، وأخرجتك من مآسٍ عشتها معك طوال الرحلة، متمنيًا وصولك إلى القصر، فلماذا أنت حزين؟"

جذبنى وسبحنا نحو الأعماق، ودخلنا حجرات المنازل البيضاء، قائلاً: "أنا أحيا هنا، ويمكننى الذهاب معك الآن إلى مقهى الميناء، كى نتحاور، ونشرب الشاى ونعود لداخل الممرات التى لا يعرف أحد مكانها".

جدفنا سعداء داخل المياه، حتى وصلنا إلى الشط، ودخلنا المقهى وتحدثنا وسط الرواد كأحياء.

وعندما لطمنى صاحب المقهى أمامه على خدودى انسحب بعيدًا، وألقى بنفسه فى البحر، وتركنى وحدى أواجه مصيرى، فتذكرت أقوال العجوز عن تبعية الطيف الذى يلازمنى فى حياتى لأجهزتهم، وضعوه بأعماقى ليرشدنى من دون أن يظهر أمامى كإنسان، لكنى أشعر بوجوده،

وأحادثه، ويرد على أسئلتى، ويدلنى على الاتجاه الصحيح، صحوت من ذهولى وقلت للنادل الذى اقترب من وجهى: "أتعرفنى؟" رد بصوته الأجش: "أنت روح رئيسنا المفدى".

لفحتنى حرارة الشمس، وعدت ليقظتى وفوجئت بنفسى نائمًا وسط الحشرات، اقترب أحد الزبالين وسلمنى رغيفًا محشوًا بالطعمية، قائلاً بود: "افطر معانا يا سيدنا"، أخذته من يديه وتناولته بلذة وسط صراخ الحمير والكلاب والقطط التى تملأ الخرابة.

أشار زبال آخر إلى عيونى، وأعطانى كوبًا من الشاى، قائلاً: "تدخن يا أبونا؟" تجاهلته صامتًا ثم سألته: "احنا فين؟" رد، والبكاء يملأ عينيه: "فى الدنيا".

كررت سؤالى بذهول: "وأين مقلب الزبالة الذى نعيش فيه الآن؟" لم يرد وتركنى لحالى، وركب الحمار خلف أحد زملائه، وقال ملوحًا بيديه: "ادعيلنا يا شيخ".

لملمت نفسى وقمت متكئًا على يدى خارجًا من الخرابة إلى حارات وشوارع الحى، وحين وقفت صامتًا بجوار بائع الترمس الذى يحوم الذباب حول بضاعته، سألته من دون مقدمات: "أتعرف مكان بائع البطاطا؟"

بكى بحرقة أمامى، وأعطانى كيسًا مملوءًا بالفول، قائلاً: "إنهم يملأون الشوارع".

أحسست بالكرب يملأ أعماق البائع كأنه خسر حياته، نظرة الموت التى ملأت عيونه جعلتنى أعيد الفول إلى عربته وتركته وغادرت مبتعدًا.

" **بيومى** "

فى الحجرة التى استأجرتها بالحومة وعشت فيها أجمل لحظات حياتى، تكمن سعادتى، أشترى لزوجتى أجولة الترمس من سوق الحبوب، كى تبلله فى الخل والمياه والليمون ليصبح مذاقه كالتمر فى الأفواه، تملأ القلل البيضاء بالمياه وترصها فى أماكنها؛ لتصبح العربة جاهزة للسروح.

كل يوم أجوب شوارع الحى مناديًا على الصابح، أقف فى النواصى؛ لأتلقى رزقى فى رضا، وحين أنتهى من بيع كل الترمس أعود إلى حجرتى، وجيوبى مملوءة بالفضة، أضع أموالى فى حجر "أنيسة" مهجة قلبى، وأدخل الحمام لأغتسل، وأصلى ركعتين للرزاق، وأجلس على الطبلية، أتناول طعامها فى امتنان.

تشعل "باجورها" وتعد الشاى، فأتذوقه كالعسل فى فمى، وأدخن سيجارتى الأخيرة، وأمدد على سريرى منتظرًا دفء أحضانها.

لا أحسب حسابًا لمرضى أو عجزى، فالعمر واحد والرزق مقسوم بحكمة لا يفهمها إلا الخالق.

الشىء الذى يؤرق حياتى هو عدم إنجاب "أنيسة" حتى الآن، فحين شاهدتها تجرى وسط السوق وراء أمها بائعة الجبنة، استوقفتها، وطلبت من المرأة يد كريمتها، لم تتردد وسألتنى عن منامتى، وحين وصفت لها الحجرة التى أستأجرها والحومة التى أعيش فيها، وافقت، وحددت موعد الدخلة، ونظرت يومها إلى عيون وليفتى، وسألتها عن اسمها، فتوارت خجلاً وراء أمها.

منذ هذا اليوم نسيت أهلى وأقرانى، وعشت أحلم كل يوم بالعودة إلى حجرتها، متمنيًا سماع صوت أنفاسها، وهى تنام آمنة فى سريرى، وبعد انتشار السرقة فى الأحياء، أصبحت أخشى على مهجتى وعربتى من الصبية الذين ملأوا الشوارع بوجوههم المشقوقة.

تسهر "أنيسة" كل ليلة لتحمى بضاعتنا من اللصوص، وتنتهز فرصة سهرها بجوار العربة لتسمع الأخبار من تلفز جارى "حمادة"، أحس كل ليلة بصوتها وهى تجلس متدفئة بحديث جارتها التى تحكى عن الدنيا التى ستفتح ذراعيها لأمثالنا.

أحس بأن "عزيزة" زوجة "حمادة" تحلم بالرزق الوفير الذى سيأتى من السماء؛ لتغرق الحومة فى السعادة.

دفعتنى "أنيسة" لمتابعة ما يجرى حولنا، لكنى أنصحها بإهمال حديث الجارة والاهتمام بمستقبلنا، فتنظر ناحيتى فى غضب قائلة: "احنا مش بهايم يا "بيومى".

وحين هجم بعض الصبية على عربتى وأنا عائد لحجرتى، وسرقوا نقودى الفضية جلست بجوار الحائط على الرصيف واندهشت لحالى البائس، كاد الغيظ يفتك بروحى وأنا خالى الوفاض، وحين شاهدتنى "أنيسة" احتضنتنى قائلة: "فداك عمرى يا خويا".

خرج "حمادة" من حجرته وأخذ بيدى، وحلف ميت يمين لأتناول عشائى معهم، وفتح التليفزيون لأشاهد عالمًا غريبًا يجرى أمام عينى، وفى السهرة أصرت زوجتى على عمل الشاى بنفسها، استأذنتهم بعد مناقشات طويلة مع "حمادة" وزوجته، وعدت لحجرتى شاكرًا ربى على نعمه التى لا تحصى.

فى هذه الليلة تغيرت حياتى بعد سماع نصائحهم، أفهمونى سبب احتياجنا الدائم للقرش واستمرار وجيعتنا.

واظبت بعد ذلك على العودة مبكرًا للجلوس معهم وسماع تفاصيل ما يجرى من حولنا، وعرفت الفرق بين الملتحين والمقنعين والمتمردين الذين يقتلهم البلطجية لتظل السرقة منتشرة فى الحى.

فهمت دورى وقررت المشاركة معهم فى التمرد، وقوتنى "أنيسة" ومدتنى بالأمل، وأزالت عن روحى الخوف، وأصبحت بين يوم وليلة أحد رفاقهم، واستخدمت عربة الترمس لتوزيع المنشورات على الباعة والمشردين الذين أختارهم بعناية وأناقشهم فى حال البلاد، وأنصحهم بتبنى رؤيتنا لنشر الخير والسلام فى الأحياء.

عدت من السوق سعيدًا برزقى وحياتى الجديدة متلهفًا سماع صوت "أنيسة" ورؤية وجه "حمادة"، أدخلت عربتى فى المدخل، وناديت بحب على وليفتى: "يا أنيسة"، وحين لم أسمع صوتها، تركت العربة ودخلت حجرتى فلم أعثر عليها، تدفق القلق إلى روحى، فناديت على جارى: "يا حمادة انت فين يا وله"، لم يرد، هرولت مسرعًا إلى حجرته، فشاهدت جثة زوجتى وجارى وزوجته ممزقين وغارقين فى دمائهم.

صرخت بعلو الصوت: "جاى الحقونى"، تجمع الجيران حولى وحاولوا مداواة جروحى، لكن الدموع التى اختلطت بدمائهم، أصابتنى بالخرس، وبعد فترة صمت طويلة، أحضر الجيران عربة

سوداء، وغسلوا جثثهم ووضعوهم فى خشبة الميتين، ورحلوا تاركين رجال البوليس فى حجرة "حمادة"؛ ليقبضوا علىّ بتهمة القتل، اتهموا "أنيسة" زورًا بخيانتى مع "حمادة"، ولفقوا التهمة ورتبوا الأوراق ليحكم القاضى علىّ بعشرين عامًا وراء القضبان.

" درويش "

ترجلت بالسوق المحيط بالخرابة، واقتربت من امرأة تبيع الجبن القريش؛ فنادت عليّ قائلة: "على فين يا أخويا".

قلت لها: " أبحث عن ابنتى "، ردت بأسى: "احنا فى الهم سوا"، أعطتنى رغيفًا مملوءًا بالقشدة، وسألتنى: "هى هربت ليه، ومن إمتى الحكاية ديه حصلت؟" فحكيت باستفاضة عما جرى، واستطردتُ فى وصف الجسور وأيام القرى والمدن ومنتجع الأحلام وحياة الواحة، فضحكت المرأة من قلبها، قائلة: "ومالوا يا عم، أديك عشتلك يومين".

سمعت صوتها الحزين يحكى عن ابنتها "أنيسة" التى قتلها زوجها بائع الترمس لشكه فى سلوكها مع جاره بيَّاع البطاطا، بكت بحرقة وصرخت منادية على ابنتها نور عيونها، فابتعدت عنها وسرت وراء متسول هرول بجوارى صارخًا حتى دخل الخرابة، حاصرته بين الأسوار، فانزوى فى أحد الأركان وعيونه تمتلئ بالريبة والحذر.

قلت للرجل بذهول "ألا تعرفنى"، وحاولت تذكيره بلقائنا الأول فى الميدان، يوم سألنى عن سعر كيلو الليمون فى السوق، وبعد اندهاش المجذوب من قوة ذاكرتى، أشهر عصا بلاستيكية فى وجهى قائلاً: "أنا النبى محمد يا أهطل!!!" قلت له بحب: "متخفش منى"، فتنحنح بخبث: "أنا عارفك، فأنت من كان يعتلى كرسى العرش فى زمن الخراب"، أندهشت من عقله اليقظ، وسألته عن مكان أخى وابنتى، رد بذهول: "أخوك فى البلد، وبنتك اتجوزت بتاع البطاطا يا عبيط".

استكملت أسئلتى متوسلاً عيونه قائلاً: "دلنى على مكان فتاتى"، امتلأت عيونه بالنور، وأحسست بأنه اطمأن لروحى، فقال بعطف: "دور عليها فى الميناء، هى لسه مستنياك يا خايب"، كدتُ أحضنه، فابتعد هاربًا من الأسوار وهو يصرخ: " تشجع يا وله لسة قلبك بينبض ".

اختفى الدرويش وأنا مازلت أقف بالخرابة، متأملاً أسراب النمل والصراصير والعِرَس المتسحبة على جسدى فى أمان كأنهم أصدقائى الذين يعرفون رائحتى ويتدفأون بأنفاسى.

عندما أفزعنى صوت الكلاب والقطط المتصارعة على بقايا العظام التى تملأ الأكياس السوداء، قمت وكلى نشاط، وشاركتهم البحث عن بقايا الأوراق التى سأسجل عليها محطات رحلتى.

بعد أيام طويلة تجمَّع الزبالون حول أوراقى المكوَّمة، قائلين: "مش هنقرب من مكانك مرة تانية يا شيخ".

وضعوا حولى قوالب من الطوب ورصوا عليها الأخشاب، وغطوها بالبلاستيك، وقال أحدهم: "احنا بنتبارك بمقامك يا سيدنا"، واستطرد آخر مستكملاً: "أرجوك، لا تترك خرابتنا"، تجاهلتهم وجلست أخطط بقلمى على الأوراق.

فى هذه الليلة نمت بعمق وشاهدت نفسى وسط مدينة أعرف شوارعها، تأملت زقزقة العصافير فوق أشجار البرتقال التى تحيط بالمساجد الملاصقة للكنائس، وسمعت أصوات الأجراس المتداخلة مع الأذان، واندهشت لاندفاع الناس إلى الهرولة لدخول بيوت الرب ليتطهروا من ذنوبهم، كأن داخل أماكن العبادة سحرًا يجعلهم يفقدون معنى حياتهم.

لكن الشىء الغريب أننى رأيت "ريان" صاحب المحل الذى سرق أتباعه قميصى يقود الملتحين فى الشوارع الخلفية مدعيًا الإمامة، كون مع فرقة اللصوص جماعات كثيرة، وأطلقوا على أنفسهم "جنود الأمل"، تحسست عيونهم فعرفت أنهم يجمعون الأموال فى زكايب ويخفونها تحت البلاط، يشغلون العاطلين ويفتحون تحت السلالم مصانع لتجميع العدد والمكن، وحين رآنى انتفض صارخًا فى وجهى مدعيًا خطفى لزوجته "صابحة".

حينذاك؛ أيقظتنى السحالى التى ملأت الأرض، فقمت، رغم الظلام، باحثًا وسط الزبالة عن الأوراق البيضاء لتسجيل باقى سيرتى.

" ريان "

الشىء الوحيد الذى حيرنى خلال رحلة حياتى الطويلة؛ هو نظرة العجوز المرتابة فى نشاطى، لم يحترمنى، واحتقر أهلى، وسار وراءه انطباعات الضابط "سيسى" و"عصام" صاحب المصنع.

لكن الشىء الذى واسانى هو جهلهم جميعًا بطبيعة بلادنا وأهلها، اندهشوا لخبراتى فى الزراعة والصناعة والتجارة، واحتاروا فى فهم خبايا وأبعاد الإمبراطورية التى أسستها بمساعدة ودعم أهلى الذين تربيت وسطهم كنبىٍّ.

تعلمت فى قريتى التى تحولت إلى مدينة مجارة الاسواق، كنت أصلى مع المؤمنين وأدخن مع الحشاشين، وأهرب من البوليس، وأصادق المخبرين، واحترفت غير ذلك الكثير من الألاعيب والمهن التى جعلتنى أستحق عن جدارة لقب الشيخ الشريب.

فى بلدتى الجديدة تهافت أهلى والعائلات القديمة التى باعت أراضيها الزراعية كى أستثمر أموالها بالفوائد الحلال، جمعت ملايين الجنيهات، وفتحت مصانع لإنتاج العجول والملابس والذهب.

بعت منتجاتى فى شوارعها ومحالها، وحولتها إلى خلية نحل، وسارع الفلاحون فى بيع أراضيهم وتحويل أثمانها إلى خزانتى، فقمت ببناء الأبراج والعمائر عليها وأوصلت الكهرباء والمياه على حسابى الخاص، ومن سعادة السكان الجدد بحياتى أطلقوا اسمى على شوارعهم وأبنائهم وأحفادهم، وعندما أنظر إلى اللافتات ونواصى الشوارع واقرأ اسم "ريان" عاليًا أحس بالفخر .

شاركت العاطلين ليفتحوا مطاعم ومقاهى ومحال وورشًا لبيع وإنتاج كل شىء، وحينما اجتاحت أسواقنا البضائع الصينية والمضروبة اشتريتها بنصف الثمن، وعطشت السوق واحتكرت السعر.

ومُلِئت الأسواق بالموبايلات والتكاتك، وحولت القرى التى كانت تنام من العشاء إلى مدن وأحياء متيقظة لا تعرف الراحة، وبسبب نشاطى، ارتدت النساء البرقع وترك الرجال ذقونهم، وبنيت المساجد وصرفت على اليتامى والأرامل، كزكاة مفروضة على أموالى.

رغم استياء السيسى من نشاطى، لكنه تركنى أبيع وأشترى حتى امتلكت الأسواق، وعندما زارنى، وهددنى بدفع الإتاوة، لم أفهم نوازعه ورفضت، لكن الموظفين التابعين له بلغونى برسالته، فالأحكام التى أصدرها بحبسى، واتهامى بالخيانة كانت كفيلة بدفعى المبلغ عن طيب خاطر، ورغم ذلك لم أتوقف عن عملى وقررت مواجهته، وسلمت مئات الرجال الذين ناموا بالمساجد الأسلحة والمعدات ليحموا صناعتنا وتجارتنا من بطشه.

بعدها ازدادت الصراعات بيننا بسبب قوة نفوذى ورفضى دفع المزيد من "الرشاوى"، سلط السيسى البوليس ليقبض على رجالى، وسلَّح البلطجية ليحرقوا مخازنى، ورغم أن أحدنا لم يكسب حتى الآن المعركة، لكنى لا زلت أتسلح وأتجهز للانقضاض على مملكته وإسقاط نفوذه الواهى.

تصورت فى مؤتمر الوفاق أن وثيقة التعايش كفيلة بنشر السلام بيننا، لكن الرئيس الجديد الذى عينوه لا يفهم شيئًا عن مشكلاتنا وظل كخاتم فى أياديهم، ورغم أنى استضفته فى مملكتى ليفهم دورنا ويحاول حمايتنا، لكنه وبخنى ونظر إلى زوجتى "صابحة" فى شبق، وطالبنى بتطليقها، ومن دون حياء ذهبت الفاجرة لقصره، ونسيت أننى لملمتها من خيمة الدعارة التى لم تعرف غيرها بحياتها.

عندما قابلتها بعد ذلك قالت ببجاحة: "لماذا أنت حزين بدخولى القصر يا ريان؟ ألا يجب أن افكر فى مستقبلى، فالرئيس كرمَّه الله عرف قيمتى وطالبنى بالمبيت فى حجرته كفألٍ حسن".

وحين قالت إنه وعدها بالزواج لتحقيق حلمها فى العيش تحت سقف القصر المملوء بالخدم الذين ينتظرون أوامرها؛ أصابنى الخوف على مصير أهلى وعشيرتى.

الآن لا يهمنى كل ذلك، فآيات الله تسمح بالزواج والطلاق وقتما نشاء، ما يخيفنى هو نظرات العجوز فى الأيام الأخيرة لعيونى، كأنه يتوعدنى بالاستيلاء على إمبراطوريتى وأموالى.

ولأول مرة فى حياتى أفكر فى بيع عقاراتى، والهروب خارج البلاد، لكنى أعرف أنهم سوف يطولوننى مهما ابتعدت، للأسف لم يتركوا لى خيارًا سوى المواجهة، من الغد سأجهز نفسى وأسلح الملتحين التابعين لرايتى انتظارًا ليوم الحسم.

سأطلق أتباعى وأرشى الضباط لأغتال رئيسهم المعتوه، وأعين بدلاً منه "بلبل" القواد الذى يعمل كهمزة وصل بينى وبينهم.

اتصلت بالأمس برئيس عصابات الأحياء ليجهز نفسه للمعركة الأخيرة ضد أنصار "سيسى" الذى ترك حدود بلادنا للأعداء، وتفرغ لتسلم الرشاوى من التجار والصناع.

أعرف أن "عصام" الكلب صاحب مصانع المدينة يجهز نفسه لخلع الرئيس الشخشيخة وتعيين أحد أتباعه ليجلس على الكرسى، لكنى أفضل الموت لعائلتى على تحكم هذا القواد الكافر فى مصيرنا.

فى الصباح سأتصل بالعجوز وأقنعه بالخطة ليحمى ظهورنا وبعدها ستنقض العصابات على الحوارى ليستولوا على النواصى ويطردوا الكلاب من أحيائنا ويعيدوا مجد الخلافة وعصرها الذهبى.

" فوضى "

جلست بين أسوار الخرابة مندهشًا من حزنى، فرغم وصولى لأعلى منصب فى البلاد لكننى تسألت: "لماذا لم أعش مثل أقرانى، أذهب للجامع وأرتدى الجلباب الأبيض يوم الجمعة، وأتشدق ببعض الكلمات وسط المقهى، وأحمل أكياس الخبز والطعام آخر اليوم وأعود إلى منزلى سالمًا غانمًا؟"

لماذا أفجع قلبى وجود أخت زوجتى عارية فى حجرة نومى، ولماذا لم أتعايش وأتفاخر من كون ابنى أصبح رئيسًا لمجلس الحى، وأتغاضى عن كون فتاتى تعمل مع الأجهزة؟ وهربت كالمجنون من حياتها متحملاً قسوة هجرها.

كان يمكن هضم كل ذلك، والمرور من الجسر إلى الشاطئ الآمن لأجلس مع اللصوص وهم يتقاسمون دم أخى، كان يمكن سرقة حجرة فتاتى التى آوتنى فى ليلتى الأولى فى المدينة، انتقامًا من خيانتها، كان يمكن لأشياء كثيرة أن تمر دون أن أهتم بوقوعها.

كل هذه الأسئلة وغيرها سألتها لنفسى، وأنا أجلس وحيدًا فى الفجر، لكن صوت الطيف الذى أعرفه خرج من أعماقى قائلاً بصوت عالٍ: "لماذا تحاكم نفسك الان؟ ألم تكتفِ من الفجيعة والخسران؟"

لأول مرة أتجاهل صوته وتمنيت بإخلاص حضور أخى وإعادتى إلى القرية؛ لأعيش الباقى من عمرى بين حقولها حتى ولو منبوذًا، حلمت بوجه ابنتى وهى تأخذ بيدى، لأنام بشقتها وسط منازل الحى متدفئًا برائحتها حتى ولو ميتًا، تساءلت بحرقة: "هل يمكن أن تحدث المعجزة، وتأتى فتاتى لتسحبنى من يدى إلى حجرتها فى المدينة، وتدعك جسدى فى حمامها بليفتها الممزوعة من قلب النخيل وتدثرنى بدموعها وهى تغرد للنجوم؟"

أيمكنها قبول العيش معى فى الخرابة الباقى من عمرها، إذ لا يهم الآن كونها تعمل مع الأجهزة أو ترافق "سمير" النادل.. لا يهم فالمهم هو عودتى لحياتى الأولى التى ضاعت بسبب أحلامى.

وسط أسئلتى وأوهامى، فوجئت بباص يحمل العجوز والضابط والمذيعة وبعض حراس القصر يتوقف امامي.

نزلوا جميعًا بملابس العيد، مرتدين فوق رءوسهم الطراطير، واقتربوا منى مبحلقين فى أكوام الأوراق التى تحيط بجسدى، ومروا وراء بعضهم فى هدوء، وجلسوا مذهولين كأنهم يذكروننى بالتمارين وخبايا التأهيل واتفاق التعايش الذى كنت شاهدًا عليه بمنتجع الجنة.

هجمت لوادرهم ورفعت أكوام الزبالة فوق السيارات وغادرت راحلة إلى مكان غير معلوم، وانبرى العجوز قائلاً: "أنت محق، كان يجب تطهير الأحياء من القمامة"، واستكملت المرأة التى كانت تخدمنى فى القصر: "لا تحزن يا سيدى سنحول الخرابة إلى حديقة للأطفال".

وحين أشعل حراسه النار فى اوراقى المدون فيها سيرتى قاومتهم وتذكرت حكمة الدرويش الذى مدنى بالحقيقة، وهو يصرخ: "قاوم وتشجع".

دافعت بشراسة عن نفسى، وصرخت بعلو الصوت: "لن تسطوا على حياتى مرة أخرى يا كلاب"، حينذاك؛ سمعتُ المذيعة تقول بشفقة بعد أن سوَّت شعرها المستعار: "نعم يجب بناء مصحة لعلاج المجانين".

جرت الدموع على خدودى كنهر، متأملاً دخان النار الذى ملأ سماء المدينة بالسواد.

أشار الضباط إلى الحراس، فرفعونى كرهًا، وأدخلونى سيارة الرئاسة كأننى طفل عاصٍ، وبدلوا ملابسى الرثة، ومن خلف الشبابيك شاهدت النساء يراقبن الدخان ويغلقن البلكونات باكيات.

جلس العجوز بجوارى فى السيارة، وطبطب على رأسى وواسانى قائلاً: "اصبر يا سيادة الرئيس، فلم يتبق إلا عدة أيام وتبدأ الفوضى، بعدها سنطلق سراحك وترتاح من وجوهنا".

تمت الوراق

يوليو ٢٠١٣

من الرواية منذ ذلك اليوم لم يتنفس أحد بالمنازل إلا بإذني، طبقت وصايا أولاد الليل الذين نشأت بينهم، اخترت عشرة صبية أشداء ليعاونوني في فرض النظام، وضع الحداد -بأمري- بوابة حديدية على مدخل الحارة، وعينت عليها الصبية ليحرسوها ليل نهار، ويسجلوا حركة دخول الناس وخروجهم في دفاتر يومية، ويحصرون في خانة الملاحظات محتويات الحقائب التي يحملونها في أيديهم، ويعطوني أولا بأول التقارير عن نبض الناس وتحركاتهم .

كرم صابر

أديب وحقوقي مصري نشأ في الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمراني في المدينة، وبدأ العمل بالمحاماة عام 1989؛ نشر أعمالا إبداعية تقتفي أثر أسلوب الواقعية السحرية منها روايات "الضريح" و"المتهم" والمجموعة القصصية "أين الله" الذي اتهم بسببها بازدراء الأديان؛ ترك خروج الجماهير في يناير 2011 أثرا كبيرا على أعماله اللاحقة للثورة ومنها رواية "مريم العذراء والانتفاض" والرواية التي بين أيديكم.



كرم صابر
سيرة ذاتية للرئيس
صفصافة 2014

Cover Design by: Mohamed Sayed